غسان كنفاني

الشيء الآخر



من قتل ليلى الحايك؟



سلسلة أعمال غسان كنفاني ٥

غسان كنفاني

الشيء الآخر
(من قتل ليلى الحايك؟)

سلسلة أعمال غسان كنفاني
٥

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

* الشيء الآخر (أو من قتل ليلى الحايك)، غسان كنفاني

* الطبعة الثالثة ١٩٨٧، (الطبعة الثانية ١٩٨٣، الطبعة الأولى ١٩٨٠)

* الناشر: مؤسسة الأبحاث العربية، ش. م. م.
ص. ب. ٥٠٥٧ - ١٣ (شوران)، بيروت - لبنان.
هاتف ٦/ ٨١٠٠٥٥، تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا - لبنان.

— **IAR (RAWAFID) Ltd.**

P.O. Box 7047, Nicsia, Cyprus.
Tel. (356) 2 - 452670, TLx. 5223 Rawafid -Cy

* تصميم وإخراج وتنفيذ: دار المثلث، ش. م. م. - بيروت.

غسّان كنفاني

* ولد غسان كنفاني في عكا عام ١٩٣٦، وعاش في يافا واضطر الى النزوح عنها كما نزح آلاف الفلسطينيين بعد نكبة ١٩٤٨ تحت ضغط القمع الصهيوني، حيث اقام مع ذويه لفترة قصيرة في جنوبي لبنان، ثم انتقلت العائلة الى دمشق.

* عمل كنفاني منذ شبابه المبكر في النضال الوطني، وبدأ حياته العملية معلما للتربية الفنية في مدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) في دمشق، ثم انتقل الى الكويت عام ١٩٥٦ حيث عمل مدرسا للرسم والرياضة في مدارسها الرسمية. وكان في هذه الاثناء يعمل في الصحافة، كما بدأ انتاجه الادبي في الفترة نفسها.

* انتقل الى بيروت عام ١٩٦٠، حيث عمل محررا ادبيا لجريدة «الحرية» الاسبوعية، ثم اصبح عام ١٩٦٣ رئيسا لتحرير جريدة «المحرر»، كما عمل في «الانوار» و«الحوادث» حتى عام ١٩٦٩ حين اسس صحيفة «الهدف» الاسبوعية وبقي رئيساً لتحريرها حتى استشهاده في ٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢.

* يمثل كنفاني نموذجا خاصا للكاتب السياسي والروائي والقاص والناقد، فكان مبدعا في كتاباته كما كان مبدعا في حياته ونضاله واستشهاده. وقد نال عام ١٩٦٦ جائزة «**اصدقاء الكتاب في لبنان**» لافضل رواية عن روايته «**ما تبقى لكم**»، كما نال جائزة **منظمة**

الصحافيين العالمية (I.O.J.) عام ١٩٧٤، ونال جائزة «**اللوتس**» التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وافريقيا عام ١٩٧٥.

مؤلفاته:

* موت سرير رقم ١٢ (قصص) ١٩٦١، * ارض البرتقال الحزين (قصص) ١٩٦٢، * رجال في الشمس (رواية) ١٩٦٣، * الباب (مسرحية) ١٩٦٤، * عالم ليس لنا (قصص) ١٩٦٥، * ادب المقاومة في فلسطين المحتلة (دراسة) ١٩٦٦، * ما تبقى لكم (رواية) ١٩٦٦، * القبعة والنبي (مسرحية) ١٩٦٧، * في الادب الصهيوني (دراسة) ١٩٦٧، * عن الرجال والبنادق (قصص) ١٩٦٨، * الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (دراسة) ١٩٦٨، * ام سعد (رواية) ١٩٦٩، * عائد الى حيفا (رواية) ١٩٦٩، * العاشق (رواية غير كاملة) بدأ بكتابتها عام ١٩٦٦، * الاعمى والاطرش (رواية غير كاملة)، * برقوق نيسان (رواية غير كاملة) ٧١ - ٧٢، * جسر الى الأبد (مسرحية)، ١٩٦٥ * المقاومة ومعضلاتها (دراسة) ١٩٧٠ * ثورة ٣٦ - ٣٩ في فلسطين (دراسة)، ١٩٧٢.

بالاضافة الى مجموعة اخرى من الروايات والدراسات السياسية والفكرية والتاريخية والنقدية التي لم تنشر في كتب. منها: *الشيء الآخر، او «من قتل ليلى الحايك؟» (رواية) نشرت على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٦ * اللوتس الاحمر الميت (رواية)، ١٩٦١ * ثم اشرقت آسيا، (كتاب عن رحلة الى الصين) نشر على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٥ * ترجمة «صيف ودخان» لتينيسي وليامس ١٩٦٤.

تمهيد

نشرت رواية «**الشيء الآخر**» للمرة الاولى في مجلة «الحوادث» الاسبوعية التي كانت تصدر في بيروت، على تسع حلقات متتالية ابتداء من يوم الجمعة **٢٥** حزيران **١٩٦٦** تحت عنوان «**من قتل ليلى الحايك**». ولم يقم كنفاني باعادة نشر الرواية في كتاب مستقل، ربما بسبب تغير الظروف السياسية بعد حرب حزيران ١٩٦٧.

وقد نشرت الرواية على شكل حلقات وصور، اذ قام المخرج والناقد السينمائي سمير نصري بتحويل الرواية الى مشاهد ولقطات، نفذها مجموعة من الممثلين: رندة، منى سعد، وليد خاطر، رشيد علامة ويوسف فخري، وقام زهير سعادة بتحويلها الى صور فونوفراغية، ترافق النص.

ورواية «**الشيء الآخر**»، هي نسيج قصصي لم نألفه في نتاج كنفاني السابق او اللاحق. فهو يكتب عملا بوليسيا او شبه بوليسي، ويحيل الحبكة القصصية الى لحظات من التوتر لمعرفة القاتل، ومعرفة الظروف المحيطة بالجريمة التي اودت بليلى الحايك.

وكنفاني يجعل من المتهم محاميا يعجز عن الدفاع عن نفسه، من اجل ان يعطي لهذا الطابع البوليسي الذي يلف الرواية ابعادا سيكولوجية وفلسفية. انها ليست مجرد رواية بوليسية تنتهي الى تمجيد البوليس او الاعتراف بذكائه، وليست مجرد رواية عن عالم الجريمة كي تكتفي بالكشف عن الحيلة الانسانية في اكثر المواقف صعوبة ومأساوية. كنفاني ينطلق من حادثة القتل الغامضة من اجل ان يحاول محاكمة القضايا الكبرى التي تعترض الحياة الانسانية: الحب، الزواج، العدالة،

الخيانة. وهو في محاكمته يلجأ إلى اعادة كتابة الواقع من زاوية رؤية المتهم ـ الضحية، ليظهر لنا من خلال هذه الرؤية مجموعة الاستحالات التي تقف في وجه الانسان.

«**الشيء الآخر**» او «**من قتل ليلى الحايك**»، هي محاولة لطرح اشكالية الحياة من منطلقات العجز الانساني عن الكشف عن حقيقة الاشياء، ومن منطلق الضحية التي لا تحاول الدفاع عن نفسها، لانها تعلم استحالة هذا الدفاع.

ومن اجل ان تنجح الرواية في قول جميع هذه الاشياء دفعة واحدة فانها تلجأ الى اسلوب التشويق البوليسي، فيقدم لنا كنفاني عملا لا يمت بكبير صلة الى اعماله الادبية الاخرى. يخرج عن الموضوع الواحد، الذي كانت جميع كتاباته تقريبا لا تتوقف عن معالجته، يخرج عن الموضوع الفلسطيني، ويدخل عوالم الجريمة والجنس والخوف والموت، ليخرج منها بحصاد روائي يطرح الكثير من الاسئلة.

ولانها رواية بوليسية دون ان تقبل لعبة الرواية البوليسية، فان «**الشيء الآخر**»، تقدم نفسها بوصفها رواية مواقف وتأملات، رواية افكار اكثر مما هي رواية حالات، ولذلك، ربما، تقدم لنا جانبا من الوجه الآخر لادب كنفاني، الوجه المتسائل والقلق والمرتبك، الوجه الذي لن يتجاوز خوفه وقلقه الا في التجربة النضالية، حيث سيتعلم من «**ام سعد**» دروس الانتماء، وحيث لن تتوقف الاسئلة، بل ستأخذ ابعادها الواقعية الملموسة.

الناشر

HAMDAN.B
1/12/2009

الشيء الاخر
(من قتل ليلى الحايك؟)

انا لم اقتل ليلى الحايك..

اقولها لك انت، يا ديما الحبيبة الرائعة..

واقولها لكم جميعا ايضا.

اقولها لكم جميعا للمرة الاخيرة، دون ان اتوقع مردودا لا بالجزاء ولا بالعقاب، ولذلك لا بد ان تكون صادقة: فليس ثمة اصدق من حكم يطلقه على نفسه رجل ميت!

انا لم اقتل ليلى الحايك.

ولست اريد لاحد ان يمنحني الشفقة اذا أقنعته هذه الكلمة بان رجلا بريئا قد شنق. ولست اقولها لاي غرض. وليس لهذه الحقيقة ان تفعل ايما شيء مع العدالة. فقد كانت القضية كلها، قبل ان يكتشفها القضاء وبعد ان اصدر حكمه فيها، فوق قدراتنا جميعا ووراء منطقنا، ولذلك ارتضيت كل دقائقها صامتا، كما تعلمون.

ليس تماما.

لقد تكلمت كثيرا في الساعات الاولى، دافعت عن نفسي بالحقائق

التي يستطيع الرجل المفرد ان يراها، ثم فجأة ـ كما ينشد حبل ما حول عنق انسان فيرفع في لحظة واحدة جدارا حاسما بين الموت والحياة ـ قررت ان اصمت.

لقد استغرب الكثيرون مني انا بالذات ان التزم الصمت في حين اخذت الدلائل كلها تدفعني اكثر فاكثر نحو حبل المشنقة.. .انا الذي ما تعودت ان اصمت حين كان الموت يهدد الرجال الذين سلموني، بقدرية لا مثيل لها، حبال مصائرهم.

وانت، يا ديما الحبيبة الرائعة، كنت بلا شك اكثر الناس استغرابا..

فيما مضى كنت ارمقك وانت جالسة في مقاعد الحضور تنظرين الي مغتسلة باعجاب كان يستثيرني وانا منصرف الى الدفاع عن المتهمين.. وحين كنت انتزع من منصة القضاء حكما بابطال الموت عن موكلي كنت اعتبر هذا النصر هدية لعينيك وحدك، وكنت دائما ـ اصدقك عواطفي الان ـ انغمس وانا سابح في انتصاري بتصورك تلك الليلة بين ذراعي.. كنت تمنحينني عاطفة عميقة غريبة كأن انقاذي لموكلي هو وحده الذي اتاح لك ان تنامي في الفراش معي، كأن تخليص انسان من الموت كان يوقد في لحمك انت وهج الحياه... وكأنك ـ اسمحي لي ـ كنت تنامين تلك الليلة مع اله من نوع نادر بعث الناس فجأة الى الحياة ولون العالم.

ترى.. كيف تفكرين الآن؟ هل تعتقدين لحظة انني انا الذي قتلت صديقتك ليلى الحايك؟ هذا السؤال هو الذي كان، وحده، يؤرقني في الليالي التي امضيتها وحيدا في الزنزانة..

لا، يا ديما الرائعة.. انا لم اقتل ليلى الحايك!

تقولين: اذن لماذا التزمت الصمت طوال الوقت؟ ما الذي ربط لسانك؟ لماذا لم تدافع عن حياتك انت الذي خلصت حياة الكثيرين من حبل المشنقة؟

هذه هي قصتي كلها..

انها الجواب على هذه الاسئلة التي حيرت الجميع وحيرتك انت خصوصا وحيرتني انا ـ في البدء ـ اكثر من اي انسان آخر.

لقد كان صمتي اعلاناً راعداً عن «شيء آخر» في حياتنا عشنا دائما في معزل عنه فاذا به، فجأة، اقوى ما في حياتنا.

من الذي قتل ليلى الحايك اذن؟

اجيبك ببساطة: شيء آخر هو الذي قتل ليلى الحايك، شيء لم يعرفه القانون ولا يريد ان يعرفه.. شيء موجود فينا، فيك انت، فيّ انا، في زوجها، وفي كل شيء احاط بنا جميعاً منذ مولدنا.

نعم: انا جزء من الجريمة، وانت كذلك... ولكن الذي نفذ الجريمة هو وحش غامض ما زال ـ وسيظل ـ طليقا.

لقد صمت حين اكتشفت هذه الحقيقة فجأة.. وجدت نفسي في الفخ، وعانيت ما عاناه كل انسان اكتشف فجأة شيئا لم يكن رفاقه قد اعتادوا عليه بعد، ولذلك قررت ان اصمت، وان اترك كل شيء يأخذ مجراه الذي سار فيه دون ارادتنا وسيظل يسير فيه بصرف النظر عن ارادتنا.

ان هذه الامور كلها شديدة التعقيد حين نقولها، ولكن حين تمارسها الاحداث معنا تصبح غير ذلك.

ولهذا بالضبط قررت ان اكتب لك انت.. لانني احبك، ولانني لمحت في عينيك وانا جالس في القفص استمع الى حكم القضاء ومضة شك ارعبتني.

وسوف لن ازيد شيئا على ما حدث، وسابرر الامور لك حين اشعر انها في حاجة الى تبرير ولكنني سأقول الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق.

وانت ـ بعد ذلك ـ حرة في ان تعتقدي ما تشائين فانا في الواقع اضع على كتفيك الحمل الثقيل الذي واجهته بالصمت.. فاذا اخترت ان تواصلي الصمت وتطوي المسألة برمتها فهذا يعني انني انا ايضا كنت على صواب.

واذا اخترت ان تفتحي الملف امام القضاء مرة اخرى فسترين بعينيك انك ستدخلين الى عالم غريب لا مخرج منه تفضلين فيه لو انك اخترت ـ مثلي ـ ان تصمتي.

اجلسي الآن بهدوء على كرسيك المفضل قرب باب الشرفة، واقرأي القصة كلها بعناية... وسأبدأ من النقطة التي لم يتيسر لي قط ان ارويها لك.

في منتصف نيسان الماضي بدأت القصة بالنسبة لك على الاقل.

استدعاني المحقق الى مكتبه في التاسعة والنصف صباحاً، كان قد سأل سكرتيرتي هناء عني في التاسعة وحين قالت له انني اصل في التاسعة

والربع الى مكتبي قال لها انه سيخابرني فيما بعد، وانه لا يريد ازعاجي في البيت.

وجاء صوته في الهاتف لطيفا ودافئا، عكس المطر الذي كان يجلد النافذة، وقد دخل الى الموضوع مباشرة ولكن دونما عنف، وابلغني:

ـ سنحتاجك نصف ساعة هنا يا استاذ صالح، في مسألة مستعجلة لو سمحت.

سجلت على دفتر المذكرات ملاحظتين لهناء، والغيت موعدا، لم ينتابني اي شعور غير عادي فالمسألة بالنسبة لرجل يعمل في المحاماة مثلي مسألة عادية تماما، تناولت مظلتي وطلبت من السائق ان يوصلني الى مكتب المحقق الذي كان يعرفه جيدا.

اجتزت الرواق دونما اعتراض، ـ كالعادة ـ وتبادلت تحية الصباح مع عدد من الموظفين الذين كانوا يعرفونني جيدا، ودخلت الى غرفة المحقق دون استئذان ـ كالعادة ـ وهناك فقط جاءني للحظة واحدة شعور غير مريح حين تجاهل يدي الممدودة ولم يقف.

تكلم بهدوء، ولكن بثقة وبرود، فيما كان يقلب بين اصابعه الغليظة علبة ثقاب، وقد بدأ، كما على الهاتف، مباشرة ودونما عنف:

ـ سنسألك سؤالين عن ليلى الحايك.

وخفق قلبي خفقة بعيدة ليس بوسع احد اكتشافها او ملاحظتها، فطوال الشهور الثلاثة الماضية كنت قد تعلمت ان اجعل بدني باجمعه، على السطح، يمر مرورا عاديا فوق اسمها حين كان يلفظ امامي: في المكتب او في البيت، من سكرتيرتي او من زوجتي او حتى من زوجها

واصدقائه.

وبهدوء سألت:

ـ ماذا عن السيدة الحايك؟

ـ متى شاهدتها اخر مرة؟

ولاحظت وراء جفنيه بريق العين التي تعرف انها في تلك اللحظة تلعب لعبة الذكاء، فتراجعت في مقعدي وفكرت. كنت افكر حقا لاتذكر آخر مرة شاهدتها فيها على مرأى من شاهد، وقلت:

ـ منذ يومين، كما اعتقد. انني لا اذكر تماما.

وبجفاء وضع الامر كله على الطاولة بيني وبينه:

ـ يجب ان تذكر تماماً، الآن.

ـ انني لا اذكر تماما، فهي صديقة زوجتي وزوجها صديقي وثمة قضية في المحاكم نتعامل معها سوية، واراها عادة في امكنة عديدة دون مناسبة او في مناسبة، ولكن ذلك لا يعني شيئا، ولست مطالبا بان ادونه في مفكرتي.

واقتربت من الطاولة وسألت:

ـ ولكن هل استطيع، لو سمحت، ان اعرف لماذا كل هذه الاسئلة؟

وقام عن طاولته ودار حولها واضعا كفيه في جيبي صدارته الرمادية، واقترب مني اكثر مما يقترب المحقق، عادة، من المحامي ولكن اقل مما يقترب من المتهم، وقذف الجملة في وجهي كما تنقذف سدادة زجاجة:

- لانها قتلت.

لقد جاءت الكلمة الى اذني اولا وبالطبع، ولكن حين ارتد صداها من الحائط الداكن كنت قد ابتعلتها حتى الاعماق، واصبحت بالنسبة لي قضية، لا اكثر ولا اقل، حالة، جريمة مروعة، ولكن ابدا لم تعد مسألة شخصية. في مرات عديدة كنت اتصور ليلى ميتة ليسهل علي امر تقييمها، وذات مرة جعلت نفسي اتصورها، وهي تمتص آخر قطرات اللذة على سريرها، مجرد جثة، كنت قد اقنعت نفسي بان الوسيلة الوحيدة التي تستطيع ان تنهي علاقتنا هي ان يموت احدنا، وليس ثمة فكاك آخر، ولانه كان من المستحيل ان اتصور نفسي ميتا فقد اعتدت على تصورها كذلك. كنت اريدها ان تموت ليس لانني اكرهها ولكن لانني احب زوجتي ولانني لم اكن اريد ان اترك ايا منهما. كنت اتصورها جثة لان ذلك وحده فقط، في تصوري، كان جديرا بوضع نهاية صحيحة لكل شيء، وحده كان الامر الذي يجعلني جديرا بالاحتفاظ بزوجتي وبحب ليلى في وقت واحد.

لم افاجأ اذن، الا بمقدار ما تفاجأ العرافة بدخول الزبون، ورغم ذلك فقد كان صوتي مبحوحا تقريبا حين تساءلت، مشددا على كلماتي:

- ليلى الحايك قتلت؟ كيف؟

- كان يجب ان تسأل متى؟ هل تعطيني سيجارة من فضلك؟

واخرجت علبتي وناولتها له، فتأملها لحظة، وابتسم ثم اعادها الي دون ان يأخذ لفافة:

- ان لك طريقة خاصة في فتح العلبة.

ـ الكل يقولون ذلك.

ودخل الى الموضوع بثقة الذي اكتشف كل شيء:

ـ لقد اوقعت علبة، مفتوحة بالطريقة ذاتها، على باب بيتها.

ـ متى؟

ـ في نفس الليلة التي قتلت فيها، امس.

وبدت كلمة قتلت، حين لفظت الآن، جديدة، تماما ومرعبة كأنني انا الذي قتلتها. اما هو فقد ادار ظهره، وعندها فقط ارتجفت وعضضت شفتي ومنعت نفسي من البكاء، وحين صار وراء طاولته فتح درجه بهدوء، وتناول علبة سجائر منزوعاً غطاؤها من جانب واحد حتى منتصف طول اللفافات ورماها على الطاولة امامي كأنه يدعوني الى التدخين، كان فيها لفافتان.

ـ اين كنت في تلك الليلة؟

ـ اية ليلة؟

ـ امس، اذا شئت ان اذكرك.

ـ كنت اشرب قهوة على الشاطىء.

ـ هل تفكر ان احدا رآك؟

ـ كلا.

واشار بعينيه الى العلبة وسأل:

ـ هل هذه العلبة لك؟

ـ نعم.

ـ كنت احسب انك ستقول لا. هذا هو الخطأ الثاني الذي ترتكبه في أقل من ١٢ ساعة...

وجلس، وبدا لطيفا من جديد ثم اخذ يفكر باعتناء، وقال كأنه نسي شيئا هاما:

ـ ... يا استاذ صالح.

وتحير. كان يتصور نفسه امام قضية خطيرة معقدة اشد التعقيد، وها هوذا يصاب بخيبة امل طاحنة حين لم يأخذ الامر كله من وقته اكثر من خمس دقائق. كان كمعظم المحققين قليل الثقة بنفسه اذا ما واجه خصما لينا، يفقد قشرته الصلبة حين يرى نفسه في غير ما حاجة الى نزال وينقلب الى شيء هلامي غير محدود ولا حاسم:

ـ انت محام قديم، رأيتك هنا تدافع بذكاء عن اكثر من قاتل وتكاد تنجح تقريبا في كل مرة بتخليص رقبته من الحبل، ولكن حين يجيء دورك تسقط علبة سجائرك على باب بيتها، ثم تعترف بانها لك.

وسألت:

ـ كيف قتلت؟

وقفز عن كرسيه كأنما لسع. وعلى الرغم من انه بدا غاضبا حقا الا انه كان بميسوري ان اكتشف في اعماقه فرحة غامضة حين فوجىء بان المسألة لم تنته بالبساطة التي يتصورها، وان امامه لعبة طويلة، وربما معقدة، وفحصني بعينيه الصغيرتين محاولا الدخول الى رأسي. ولا شك انه اكتشف ان بوسعي ان اكون، بسبب من خبرتي الطويلة، مجرما

صعبا، اعطي اعترافا لابني منه متراسا، وارشو كلمة كي لا اخسر عشرا.

كان يعرف انه امامي انا، لا يستطيع الا ان يكون عاريا تماما، وانني اعرف، من مقابلات لا حصر لها، أبجدية وسائله جميعا، ورغم ذلك فقد كان من الصعب عليه ان لا يمارسها:

- تسألني كيف قتلت؟ انا الذي اريد ان اسألك.

وعندها وقفت، اطفأت لفافتي واقتربت من الطاولة التي كان ما يزال منحنيا فوقها وقلت بهدوء:

- اذا كنت تريد ان تقول انني شاركت في قتلها، فوفر على نفسك هذا الطريق المسدود، سأساعدك قليلا في اكتشاف الامر، ولكن قبل ان نبدأ ضع هذا في رأسك، من الصدغ الى الصدغ.

واخذت اقرع الطاولة بسبابتي المثنية مع كل كلمة:

- انا لم اقتل ليلى الحايك.

واستدرت، وخطوت ولكن صوته اوقفني:

- انت موقوف يا استاذ صالح.

ثم اكمل وكأنه تذكر شيئا:

- . . . لو سمحت.

***

امضيت بقية ذلك النهار في غرفة مغلقة تقع على مدخل الممر الذي

يقود الى غرفة المحقق، لقد منعوا عني، بالطبع، كافة المقابلات ولم ار انسانا الا الذي قدم لي بتهذيب لا مثيل له وقعتي الغداء والعشاء المتواضعتين، وقد اكلت بشهية طيبة، وعانيت قليلا من انتهاء الدخان، وكان المقعد الخشبي غير مريح، ثم ان النافذة الصغيرة العالية جعلتني افقد الاحساس بالزمن، وليس صحيحا ان الساعة في معصمي تستطيع تمويني بتقدير سليم للوقت. ان قليلا من الذين لم يسجنوا، لسبب او لآخر، يعرفون ان تقدير الانسان للوقت واحساسه بالزمن لا يتوقفان على الساعة ولكن على الضوء ايضا، وعلى الحركة، وعلى المواعيد، وعلى نظامه الخاص في تناول وقعاته والذهاب الى سريره، وحين ينفرد بالساعة فقط يشعر انه، بشكل ما، مخدوع.

لقد وقفت عند نقطة الزمن هذه لانها مهمة جدا في قضيتي. فقد كان توقيت الاحداث جميعا الشاهد الاول ضدي، وحين كنت استمع الى مرافعة الاتهام واستجوابات الشهود كان الزمن، الذي لم يكن يعني بالنسبة لي الا علاقات مع الناس ومع نفسي، قد اضحى بطلا منفصلا له شخصيته الخاصة ينازلني هنا وهناك كأنه خصم صعب.

هل الزمن صدفة؟ هذا سؤال لا يعني القضاء، وليس ثمة قانون في تراث الانسانية يتعامل مع هذه النقطة بقدر ما تسعفني ذاكرتي من شواهد، ولكن ما اعرفه الآن تماما هو ان الزمن لم يلعب الدور الرئيسي في القضية قبل توقيفي فقط، ولكن بعده ايضا. وفي الشهور التي قضيتها سجينا نشأت علاقة من نوع جديد بيني وبين الزمن، لقد كف عن ان يكون بالنسبة لي علاقة مع الناس ومع نفسي واضحى خصما محضا.

حين تضعون رجلا في غرفة مغلقة خمسة شهور، بلا امل تقريبا، فان الزمن، اذن، لا يستطيع ان يكون بالنسبة له ما هو بالنسبة لجميع الناس. ان تنظر الى ساعتك فترى انهاالواحدة امر لا يعني شيئا. انه تجريد محض. الواحدة بالنسبة لرجل خارج السجن هي ساعة طويلة، او قصيرة، هي ساعة قبل الغداء او ساعتين بعد انتهاء العمل، ولكن ما هي بالنسبة لي انا؟ لقد تعودت هذا الامر تعودا فظا، وحين كف الزمن عن ان يكون بالنسبة لي علاقة مع الناس ومع نفسي صار الناس - وصارت نفسي ايضا - اقل اهمية، استطيع ان اقول انهما صارا اكثر تجريدا، صارا طرفا في مسألة حسابية لا تعني احدا الا بمقدار ما تعني عملية جمع حسابية، بالارقام المحضة غير المترجمة الى مال او وزن او مسافة.

لو تركتم وقتا كافيا لي لكتبت كثيرا عن هذه المسألة، وقد وقفت عندها هنا بصورة عابرة واخشى ان تكون غامضة ايضا لابرر لكم صمتي، لابرر لكم كل الامور التي لم تستطيعوا تفسيرها في سلوكي الى درجة ارتضيتم ان يكون تنفيذ الحكم في اسرع من المعتاد.

***

قبل انصرافه في المساء زارني المحقق، وكان لطيفا جدا حين ابلغني بانه لا يستطيع ان يجزم بادانتي او ببراءتي او بموقعي بين الادانة والبراءة ولكنه يخشى ان اكون في موقف صعب.

- «انت الآن في اخطر قضية شهدتها طوال خبرتك في المحاماة، تحتاج الى قدر هائل من اهتمامك واعتنائك، ليس لانها معقدة فقط ولكن لانها تستهدف رأسك، لا رأس موكل غريب. . انني انصحك

بان تكون دقيقا جدا في اختيار اجوبتك امام هيئة المحققين، غدا.»

هيئة محققين بهذه السرعة؟ هذا يعني ان الصحافة تضج كثيرا، وان لدى الاتهام ثروة من الادلة وان الجريمة بشعة حقا لتكون قد استقطبت اهتمام الناس.

ليلى الحايك!

وفاحت رائحتها القوية فيما كانت العتمة تنزل من النافذة العالية. لقد كانت صديقة زوجتي منذ ايام الدراسة ولكنهما انقطعتا عن بعضهما بعد التخرج، وفي السنوات السبع التي انقضت على زواجي لا اذكر ان ديما، زوجتي، قد لفظت اسمها امامي او تحدثت عنها، وقد قابلتها لاول مرة في عيد ميلاد زوجتي.

كنا قد قررنا، ديما وانا، ان نمضي تلك المناسبة بهدوء: نتعشى في مطعم ثم نذهب فنرقص قليلا في ناد ليلي وهناك التقت ديما بليلى وكنت اضم زوجتي في حلبة الرقص حين اخذت تتبادل الكلام، من فوق كتفي، مع امرأة اخرى ورائي. ثم قدمتها الي، وقدمت هي زوجها، وحين عدنا الى طاولتنا اقترح زوجها ان ننضم الى طاولة واحدة وعلى الرغم من اننا كنا قد اتفقنا على ان نجعل ذلك الاحتفال الصغير منفردا، قاصرا علي وعلى ديما، الا ان فرحتها بلقاء صديقتها القديمة بعد غياب طويل، وربما توقها الى معرفة من منا يكسب اكثر انا ام زوج ليلى جعلها تقبل العرض بلا تردد.

كان زوج ليلى، سعيد الحايك، رجلا وسيما، يحمل وجها شابا لا تستطيع عبره استكشاف عمره، كان قصيرا بعض الشيء ولكنه نحيل

الى درجة تخفي ذلك القصر. ومنذ بدأ يتحدث كان من الميسور ان يلاحظ المرء بانه رجل شديد الذكاء، واسع الاطلاع، يجيد الاستماع الى اي موضوع والمشاركة فيه، وكان واضحا ايضا انه يحب ليلى بصورة لا تصدق، ويغار عليها بصورة ذكية: فهو يلاحق، دون ان يتوقف عن الاستماع او عن الحديث، نظرها اينما تنقل، ويدرس اهتماماتها بالرجال والازياء واللوحات في محاولـة واضحة لاكتشـافها حتى الاعماق.

وكنت اعرف جيدا هذا النوع من الرجال الذي يعاني من شعور غامض بانه لم يمتلك حبيبته تماما، بعد. وفي سبيل ان يحقق هذا الهدف المعذب يخوض مغامرة صعبة لاكتشافها كي يوظف هذه الاكتشافات اليومية في عملية تطويق مرهقة، وتلبية كاملة، لكل اشواق المرأة ومطامحها ونزواتها.

وكنت اعرف ايضا ان هذه معركة خاسرة حتما، ان العالم الذي يجتذب المرأة ويرويها عالم شاسع وكلما اكتشف الرجل مساحة منه اطل منها على مساحة اكبر لم يكتشفها بعد، ويزيد ذلك في شعوره بانه لم يمتلك المرأة بعد، تماما. اما المرأة فينتابها شعور مرير بان اكتشافها بهذه الصورة يفقدها الكثير من اسرار الانثى، ويضيع عليها فرصة ممارسة دورها كمعبد غامض ساحر، وهي امام تقدم الرجل الذكي في مجاهلها تتراجع وتنكمش.

وحين قمت مرة اخرى أرقص مع زوجتي قلت لها: «ان ليلى الحايك امرأة سهلة».

كانت ليلى نصف جميلة، ولكنها تتوقد باهتياج مثير وليس بوسع

الرجل العاقل ان يمنع نفسه من التفكير بها كعشيقة. ممتلئة بعض الشيء، ذات بشرة صافية شديدة النعومة، تفتح فمها على وسعه حين تضحك وتقذف برأسها الى الوراء فتبدو، لوهلة، مستلقية فوق وسادة، على ذراع رجل، متراجعة امام اندفاعه كانها تتمنع، او تتحدى، ساخرة، قدرته على امتلاكها.

وقالت لي زوجتي: «لماذا تعتقد ان ليلى الحايك امرأة سهلة؟»

وتلك اللحظة بالذات، فقط، قررت ان ابذل المحاولة، ذلك انه ليس بوسعي اعطاء جواب آخر، ليس لزوجتي فحسب، ولكن لنفسي ايضا.

وحين التزمت الصمت سألت زوجتي مرة اخرى: «هل تعتقد انها لا تحب سعيد؟».

ـ كلا، انها تحبه جدا وتريد ان يظل يحبها. . لست ادري، ولكن اعتقد انها، لذلك، امرأة سهلة.

وفغرت ديما فمها، وابعدتني عنها وتأملتني ساخرة ثم قررت: «لقد شربت كثيرا.»

ولم اكن قد شربت كثيرا حينذاك ولكنني كنت امر في تلك اللحظات العابرة التي يشعر فيها الانسان بانه يستطيع، لو بذل قليلا من الجهد، ان يمتلك العالم. انها لحظات تشبه ان يكون المرء قد شرب كثيرا، وصار بوسعه ان يصدق بان النظريات التي يحملها حول الاشياء والناس والقيم كاملة في صدقها، وان ما ينقصها فقط هو ان توضع في مكان تفرخ فيه تجربة ما.

وحين جلسنا قال سعيد باسما:

ـ انني اسمع عنك انك محام لامع، وانا في الحقيقة فخور بمعرفتك.

ونظرت ليلى الي، ربما لاول مرة ذلك المساء. ودرستني في نظرة واحدة لا تجيدها غير المرأة الحقيقية، وكان من العسير علي ان اعرف فيما اذا كنت قد اجتزت ذلك الامتحان، ومن ناحية اخرى كنت مهتما في ان احول بين زوجها وبين اكتشاف ايما شيء، كنت اريد، بشكل ما لست اعرفه، ان تدرسني من وراء ظهره، كي لا تتقاطع نظراتها بعينيه الذكيتين الشديدتي الملاحظة.

ومضى هو، كأنه لم يقل شيئا بعد:

ـ اود لو تعطيني غدا نصف ساعة استشيرك فيها حول مسألة تخص صديقا.

ـ اي نصف ساعة تشاؤها غدا.

وحتى تلك اللحظة لم اكن قد عرفت بعد ايا من صنارتينا قد شبكت الاخرى: كنت اريد ان اعرفه، ذلك انه اذا كان طفل الارملة افضل الطرق اليها فان الزوج هو الطريق الوحيد للزوجة السهلة، اما هو فقد كان يهدف بلا شك الى ما هو اكثر من استشارة حول مسألة تخص صديقا، فليس من المعقول ان ينتظر رجل اعمال ناجح مثل سعيد الحايك مصادفة في ناد ليلي ليهتم بمسألة صديق مزعوم، وسواء اكانت صنارتي هي التي اصطادت صنارته ام العكس، فان على كل منا، منذ الآن، ان يكون شديد الحذر، فقد كنا، ببساطة، خصمين صعبين.

وتركته يرقص مع ديما، وراقصت ليلى بوقار، وحرصت على ان لا

اطرح عليها ايما سؤال. اما هي فقد كانت ابسط مما توقعت، وقد سألتني عما اذا كنت اعرف حقا ان ديما رائعة وانها كانت اجمل فتيات الصف بلا منافسة، وسألتني عن عملي ومكتبي وسيارتي وعائلتي وكنت اشعر بانني يجب ان البي شوقها الى اكتشاف الآخرين، لقد كانت اجوبتي تزرع في رأسها اسئلة جديدة. انها ترتاح الى ان تلعب معي لعبة زوجها معها، فاذا استمر ذلك بعض الوقت، فالى اين سينتهي؟ كنت شبه متأكد من النتيجة، ولكنني تصرفت كرجل يستعصي على الامتلاك.

وودعناهما على باب النادي وقلت لزوجتي ونحن نمضي كي اصرف نظرها عن كل شيء: «انها سيدة بليدة.»

ولكنني في اعماقي كنت متيقنا انني غرست نفسي في اعماقها.

لقد كانت هذه اللحظة بالذات هي بداية الجريمة التي اودت بحياة ليلى الحايك والتي لم ارتكبها انا... ورغم ذلك حكمت بالموت بسببها.

وكانت مسألة واحدة، في تلك اللحظة، تقف نقطة سوداء غامضة في طريق مشروع علاقتي بليلى...

زوجها.

ماذا تراه يريد مني؟

ولكن ذلك كله سيبدو لكم الآن، ايها السادة، وكأنه خارج الموضوع، وفي الحقيقة انه ليس كذلك تماما، ان اية حادثة ـ حتى لو كانت جريمة قتل بشعة ـ انما هي حلقة واحدة في القصة وربما كان اكبر

خطأ يرتكبه القانون هو انه يحاول تشريحها منفصلة قدر الامكان عن كل شيء اخر. وعندها لا يستطيع ان يكتشف فيها اكثر مما يستطيع المخبري ان يكتشف من قطعة الجلد، انسانـا. صحيح ان القانون يظل مهتما في البحث عن الاسباب والقرائن، ولكن اهتمامه هذا يكسب قيمته فقط حين تكون هذه الاسباب والقرائن قريبة بصورة مباشرة للجريمة. ان الجريمة بالنسبة للقضاء هي قصة مسطحة، فيما هي بالحقيقة قصة ذات ثلاثة ابعاد، مثل كل شيء في هذه الحياة. انتم لا تستطيعون ان تحكموا على هملت، الان، بالموت، ذلك لانه استطاع في اربعمئة سنة ان يقنعكم بان الجريمة التي ارتكبها انما هي حلقة واحدة من قصة لا يمكن تمزيقها. ولو احضروا امامكم رجلا قتل اباه ليتزوج امه لشنقتموه دون تردد، ولكنكم ستفكرون الف مرة قبل ان تلمسوا شعرة في رأس اوديب.

***

زارني سعيد الحايك في مكتبي ظهر اليوم التالي، بعد ان هتف طالبا مني انتظاره، وحين دخل طلب فورا ان نمضي فنتناول الغداء في مكان مريح. اعتذر لزوجته وفعلت مثله ثم ذهبنا في سيارتي الى مطعم اسماك يقع على بعد ثلاثة اميال من المدينة.

وفي الطريق، فيما كنت اقود السيارة بنفسي لان السائق كان غائبا لسبب لا اذكره، حاول سعيد بطريقة ذكية ان يوحي لي بانه يحب زوجته حبا عميقاً وكان ذلك كله تمهيدا لما سيأتي، ويبدو انه فكر مليا في طريقة يدخل بها الى الموضوع ثم اكتشف ان ابسطها هو الافضل.

لم نكن قد بدأنا الاكل بعد، حين اعتدل في جلسته ومنح صوته تلك

الرنة التي يعطيها الرجل حين يريد ان يبدو مخلصا وحاسما وموجزا في وقت واحد:

- نحن رجلان عاقلان يا استاذ صالح، وينبغي ان لا نسيء تقدير ذكاء كلينا. ان المصادفة وحدها هي التي ستجعلنا شركاء في القضية التي سأعرضها عليك.

وكي لا اجيب قدمت له لفافة فأخذها ودقها على الطاولة وابتسم.

- طريقتك غريبة في فتح العلبة، لماذا تفتحها هكذا؟

- كي اظل على معرفة بعدد ما تبقى من سجائري. انني ادخن كثيرا واخشى ان اجد نفسي دون لفافة على حين فجأة فينتابني شعور بانني اعدو في الشوارع وامام الناس دون سروال..

- ثم صارت عادة؟

- اجل.

انه موضوع صعب كما يبدو، ولذلك فهو يحرص على خلق جو من الصداقة الحميمة قبل الشروع في الحديث، وحاولت ان اسهل له مهمته بالصمت وبالابتسام مستشعرا قلقا غامضا كأنني على ابواب عرض لا يقيم:

- استاذ صالح.. انني مثلك احب زوجتي، ولست ادري كيف تشغلك هذه المسألة، ولكنني اريد ان اسألك، لو كانت زوجتك تمتلك ثروة كبيرة.. فماذا تفعل؟

ولم اكن اتوقع مثل هذا السؤال، لم اكن في الحقيقة قد فكرت به من

قبل، واهم من ذلك لم اكن اعرف الجواب الذي يريد ليتكىء عليه الى نقطة تالية.

- ان ليلى هي وحيدة لاب أرمل سيموت في اسبوع، هذا موعد طبي وليس غير ذلك على الاطلاق، وفي اسبوعين اذن سترث ليلى ثروة.

وحين لاحظ دهشتي وضع الامر في نصابه:

- انني احب ليلى، ولست اريد ان افقدها باية وسيلة.

ومضى شوطا آخر:

- لا اريدها ان ترث هذه الثروة.. هل تفهمني؟

- افهمك، خصوصا اذا اردت ان ترثها بنفسك.

وسحب كرسيه الى الامام واتكأ على الطاولة:

- لا تسىء فهمي ارجوك. ولكن معك حق. فانا الذي اسأت شرح الموضوع برمته. لنضع الامر كما يلي: انا احب ليلى، لا اريدها ان ترث ذلك المال كي لا يفسد علي كل شيء، ولا اريد انا ان ارث ذلك المال.

وتبدى لي، تلك اللحظة، اذكى بكثير مما تصورت واكثر التصاقا بتلك الانانية النبيلة التي تستعصي على الفهم.

- «قبل ان يتزوج والد ليلى امها كان مغتربا في الارجنتين، والحقيقة انه جاء من هناك برأسماله الذي بنى فوقه ثروته، وقد ماتت والدة ليلى في وقت مبكر، الا ان الوالد المفجوع لم يتزوج مرة اخرى، وقد اوقف حياته على العناية بابنته التي كانت، حقا وحيدته في هذا العالم، وقد اوصى لها، بالطبع، بثروته كلها واخشى الآن ان يكون ذلك العجوز

الطيب قد ارتكب خطأ لم يتوقعه، فيدمر ابنته وسعادتها من حيث اراد مساعدتها».

قلت له انني افهم قلقه، فهبوط ثروة مفاجئة على امرأة هو امر لا يستطيع أي انسان ان يضمن نتائجه ولكنني افهمته انني لست ارى اية طريقة لمنع ذلك الارث عن الابنة، وسنبدو مضحكين لو اننا بذلنا المحاولة.

ـ انني اعرف ذلك كله، وقد فكرت فيه مليا، الا ان الاقدار وجدت حلا ما، هو الذي من اجله طلبت مقابلتك.

وبدأنا نأكل صامتين، لم استعجله لانني كنت اود التفكير بالامر، انني لم اواجه قط مثل هذا الموقف، واجهت عشرات من المواقف المضادة، ولكن ابدا لم يجيء انسان عندي كي اساعده في التخلص من ثروة.. ثم ما الذي يحدث في علاقتي مع ليلى التي كنت ارتبها باعتناء؟ ان شيئا واحدا هو الاكيد الآن: صنارته هي التي اصطادت صنارتي!

ـ «لقد استطعت ان اعرف ان والد ليلى حين كان شابا طائشا في الارجنتين، رزق بابن غير شرعي.»

وابتسم، ليجعلني افهم انه هو نفسه يشك في هذه الحقيقة ثم اكمل مرتاحا الى تلك الصفقة الصغيرة في امانة مثالية:

ـ .. ومثل كل والد شرقي يريد العودة الى بلاده اعطى الابن اسما آخر، واعطى الام رشوة صغيرة، وقرر لكليهما مساعدة دائمة وانزل الستار بهدوء على ذلك المشهد من المسرحية.

ووضع سكينه وشوكته على حافتي الصحن وأكمل: منذ يومين

وصلتني رسالة مغفلة، منتزعة من قصاصات صحف، دون توقيع، تقول انه لا ينبغي علينا الاستئثار بالارث واننا يجب ان نذكر الشاب الذي امضى حياته محروما.

ورمى الرسالة امامي وقال: من الواضح انه يريد رفع الدعوى، وان هذه الرسالة هي تهديد اولي.. لديه بعض الرسائل من الوالد.. ولست ادري لماذا لم يوقع هذه الرسالة كأنه يريد ان يوحي لي بأن وراء الامر قوة ما.. على اي حال لماذا لا نستبق الاحداث؟ لماذا لا تتولى القضية انت وتدافع عن حقه؟

واصبت بقليل من الدوار، ولكنني قلت له ان مثل تلك القضية لن تكون الحل، فالقضاء سيبت ان عاجلاً أو آجلا بالامر.

ـ ليس تماما، انا واثق ان اوراق الصبي ليست كاملة.. انه امر يحدث دائما في مثل هذه القضايا، كما تعلم، ولدى ليلى اوراق مضادة.. ان الذي نريده الآن هو ان لا يتوصل القضاء الى قرار الا بعد فترة طويلة، انا واثق ان الشاب الارجنتيني هو مجرد افاك، وانه سيقبل رشوة صغيرة ليسقط دعواه، ولكنني لا اريد ان اعرض هذه الرشوة الا في الوقت المناسب.. نريد الآن ان ندفع القضية الى ممرات طويلة من التعقيد، ولسنا نرغب في اية تسوية الا بعد فترة طويلة، ربما طويلة جدا

ـ لنقل حين اموت انا، او حين يحدث شيء ما غير عادي ـ وعند ذاك فقط سيخسر الصبي.

وصمت قليلاً، وفكر فيما قاله باعتناء ثم وصل الى المرحلة الاخيرة:

ـ ان ذلك كله يحتاج الى محام لامع، لا تربطه بنا علاقة وثيقة،

ويتمتع بامانة وسمعة تجعلانه يحجم عن استغلال قضية من هذا النوع.

وفورا وصلت الى قرار:

ـ سأطلب منك يا سيد سعيد بضعة وعود، كرجل شريف، قبل ان نبدأ، وفيما عدا ذلك بوسعك ان تعتمد علي اذا كان ما ذكرته هو كل شيء.

ووقف ضاحكا ومد يده:

ـ كنت متأكدا اننا سنتفق يا صالح.

وترك الرسالة الموجزة المغفلة معي، كانت من كلمات مقطوعة من الصحف، تحكي بايجاز ودون اي ايحاء قصة الارث وقصة الشاب الارجنتيني الذي نبع في الوقت المناسب.

* * *

وفي الاسبوع التالي، استكملنا اوراق القضية: كان ثمة سلسلة من الوصولات الرسمية ارسلت من والد ليلى الى سيدة ارجنتينية منذ زمن بعيد، ليس فيها اي ذكر لابن شرعي او غير شرعي، ثم رسالة عزاء للصبي ليس فيها برهان الا على شيء واحد هو ان الوالد كان ذات يوم، يحب الام بصورة غامضة فريدة. وكتبت للصبي الذي كان كما قالت الرسالة المغفلة يعرف القصة والذي كانت الفكرة تروقه الى حد بعيد، وقالت رسالة الصبي انه تدبر بالاضافة للاوراق امر شاهدين او ثلاثة. وكان هذا يكفي الآن لبدء القضية، ولكن الوالد المريض لم يمت وهكذا لم يكن امامنا الا الانتظار. ولم اكن اعرف، حتى تلك اللحظة، ماذا كنت انوي تماما ـ كان يخيل الي انني سأجد طريقة لقلب الموضوع،

موضوع ليلى، الى مصلحتي، ثم انني كنت اعتبر الامر برمته عبارة عن تحدٍ مهني لا مناص من خوضه.

لقد ضربت الصدفة ضربتها الثانية حين قامت ليلى بزيارة لزوجتي: كان سعيد في واحدة من رحلاته التي لا تنقطع، وعدت انا مبكرا للبيت وامضينا سهرة عادية، شبه باردة، وحين انتصف الليل طلبت مني ديما ايصال ليلى بسيارتي.

ولم نتبادل الا حديثا موجزا في الطريق، ثم اوقفت سيارتي واخذت المصعد معها الى الطابق العاشر، وامام الباب طلبت مني ان اتناول المفتاح عن الحافة العلوية، حيث تركته الخادمة. كان الباب ذا اطار خشبي بارز، وقد مررت اصابعي في الطرف، فوقه، حتى عثرت على المفتاح فناولته لها، وقبل ان تفتح الباب لاحظت:

- انت اطول من سعيد، انه يبدو مضحكا حين ينط ليتناول المفتاح.

وتصافحنا ببرود، وعدت الى البيت.

لقد انزعج سعيد اشد الانزعاج حين روت له زوجته ما حدث، واتصل بي خصيصا ليذكرني بان علاقتي بهما يجب ان تكون باردة، واقترح ان امتنع عن القيام باعمال مهذبة من هذا النوع كي اجنب زوجته اي شعور بالصداقة تجاهي، وقد رأيت انه، نظريا على الاقل، على صواب.

وحين مات والد ليلى تولى محامي العائلة امر تصفية الارث، وفي الوقت المناسب قدمت الاعتراض فاندفعت القضية الى اروقة شديدة التعقيد، وبدأت اللعبة المسلية تزيد من علاقتي بسعيد، الذي كان

يروقه ان يمر على مكتبي بعد هبوط الليل، ليتحدث ويشرب ويضع خطط المستقبل.

ولست اذكر الآن، بالضبط متى جاءت ليلى لاول مرة الى المكتب مع سعيد. كانت غاضبة ولكنها تركت زوجها يشرح لي موقف العائلة، ويعدد الاثباتات التي تبرهن ان ذلك الصبي الدعي كاذب ولص، وعرض علي في آخر الجلسة مبلغا من المال كي اخسر القضية او على الاقل اتخلى عنها.

وكانت ليلى معجبة بموقفه، وقد لاحظتها تتابع جدله مفتونة وفخورة، وانتابني شعور غريب بسعادة غير مفهومة حين خطر على بالي، فجأة، انني استطيع تحطيم علاقتهما في دقائق لو نفضت الحقيقة، امامهما، بحذافيرها. ولكن هذا الشعور بالانتصار جعل امر اعلانه ثانويا.

وقلت لليلى انني، بغض النظر عن احترامي لصداقتها مع زوجتي، فانني لا استطيع ان اخذل موكلا استأمنني على ما يعتقد انه حقه ومصيره معا..

- «ان لدي شيئا واحدا استطيع ان اعرضه امامكما: لن اكون مزورا، ولن اكمل القضية اذا كانت خارج نطاق العدل والحق».

وقد فوجئت انا، مثلما فوجىء سعيد، بموافقة ليلى، سعيدة، على هذا العرض، وفي الحقيقة فقد كانت اكثر سعادة مما توقع كلانا فنهضت بقفزة مرحة عن مقعدها ومدت يدها نحوي وصافحتني:

- انا اعرف انك محام شريف، واقبل وعدك دون تحفظ.

لقد كانت واثقة تماما من انه، عاجلا او آجلا، سيثبت حقها. وكان بوسعها، كما يبدو، ان تنتظر مطمئنة اذا كان النزال شريفا، وقد اعطيتها انا الكلمة التي كانت تريدها، فلم يعد ثمة ما تخشاه.

وحين خرجت مع زوجها من المكتب بدت صديقة حميمة تعتقد ان ما يحدث في قاعة المحكمة ليس هو الا معادلة حسابية اشارك انا، من طرف آخر، في وضع حلها الصحيح، الذي هـو بلا نقاش مصلحتها المحضة.

وقد توقعت ان تزورني منفردة فيما بعد. فقد اضحت الآن مهتمة جدا بتذكيري بوعدي، ليس ذلك فقط، بل كانت تريد ايضا ان تجعل من صداقتها الحميمة مع زوجتي ومعي في آن واحد الرقيب الساهر الذي يعمل، داخل ضميري، لمصلحتها.

في الاسبوع الذي جاء بعد ذلك قابلتها مرارا في منزلنا، ولكنها كانت توفر علي امر ايصالها، ولا اذكر انها تحدثت عن قضية الارث ابدا، الا حين جاءت الى مكتبي بعد ذلك وحدها لترجوني ان لا اشجع زوجها على القيام بعمل احمق لمصلحتها، كان يحاول اغرائي او اغراء الصبي بمبلغ من المال لنتخلى عن القضية.

- «انت تعرف كم يهتم بمصلحتي، ولكنه لا يعرف والدي - انا الذي اعرفه واعرف انه لم يرتكب عملا من ذلك النوع - احيانا الاحظ ان سعيد يشك في الامر، وقد يدفعه هذا الشك الى اغراء الصبي بالمال، ارجوك ان لا تشجعه، ليأخذ العدل مجراه وانا واثقة من النتيجة».

ووجدتني اقول:

ـ لو كنت مكانه لاشتريت العالم كله، لك.

وتضرجت فجأة، ثم ابتسمت وهزت رأسها كانها تشكر مجاملة رسمية، ودارت دورة واسعة حول الموضوع لتعود من حيث لا تدري، الى جانبه الآخر:

ـ كيف حال ديما؟

ان ذلك يوحي بشيء كثير. كثير جدا. لقد اصابتها كلمتي في قلبها فذكرتها بزوجتي، لقد اعتبرت كلمتي غزلاً غير شرعي، ربما ارقها، ولكنها لم تستطع ان تقبلها على محمل رسمي وعادي. لقد اعتبرتها ـ رغم كل شيء ـ غزلا لا يمنع شرعيته الا معرفتها بديما.

كانت ديما، بالمصادفة، تقوم بزيارة لشقيقتها في بغداد، وبدت فرصتي الكبرى التي لا يمكن لها ان تعوض.

ـ ان ديما في بغداد. هل تعرفين؟ حين تكون ديما غائبة انقطع عادة عن تناول وجبات منظمة.

وصمتت، فيما انفتحت حواس الانثى الالف فيها على وسعها، كشبكات التقاط هائلة متحفزة للاصطياد، ومضيت:

ـ لو لم يكن سعيد يكرهني بسبب هذه القضية اللعينة، لدعوت نفسي للعشاء عندكما.

وببطء ولكن بخوف وتردد، قالت:

ـ انه مسافر.

ـ اذن لماذا لا نتعشى معاً؟

ـ سيغضب.

وتنفست الصعداء، وكففت عن السؤال، ذلك ان الموضوع قد انتهى باسرع مما توقعت، وربما دون ان تتوقع هي ـ كانت هناء قد غادرت المكتب فلبست معطفي، وحين صرنا على باب المصعد امسكت يدها وادخلتها امامي، وقدت سيارتي فيما كان المطر ينهمر بغزارة الى مطعم بعيد ـ لم نتبادل كلمة واحدة، ولكنني اقنعتها بشرب كمية من النبيذ اكثر مما ارادت، واكلنا بشهية، وحين دعوتها الى الرقص لم تتردد ـ ورقصنا بوقار، وفي المرة التالية ضممتها الي ففقدت انتظام خطواتها، وقالت فيما كانت قريبة من اذني ومشيرة الى خطواتنا:

ـ لقد خرجنا عن القواعد.

وقلت بهدوء:

ـ ان القواعد الجديدة لا تكتشف الا بالخروج عن القواعد القديمة.

ودفعتني بعيدا عنها بعض الشيء، ليس كثيرا، وقالت:

ـ انت تعرف كم احب سعيد.

ـ انني لا أطلب منك ان تحبينني مثله.

ـ ماذا اذن؟

ـ بالنسبة لي؟

ـ نعم.

وعدت فضممتها الي وقلت لها دون ان اتركها تنظر الي:

ـ انني اريدك فقط.

ولم تقل شيئا، كانت تفكر مليا بالأمر ولكن بقلق غامض، واخذتها الى الطاولة وشربنا قدحي نبيذ دون مناسبة وانتهت فجأة الى قرار:

ـ كلا يا صالح، اننا نقوم بعمل سيء.

والتزمت الصمت، كنت حزينا حقا وقد جعلت ذلك يبدو اكثر مما هو في الحقيقة، واخذت تراقبني بهدوء وما لبثت ان قالت:

ـ كان يجب ان لا تقول ذلك، على الاقل لم اكن اتوقعه منك انت. .

ـ انا آسف ان كنت قد جرحتك، ولكنني ارجو ان تعتبري صفاقتي اطراء مخلصا لانوثتك. . انني لا استطيع ان اكون قريبا منك الى هذا الحد ولا افكر بأن. . . حسنا، اتعتقدين ان الامر بالنسبة لي هو بسيط الى ذلك الحد؟ الا تعتقدين ان قوة اكبر مما تظنين هي التي دفعتني نحو امرأة غير زوجتي منذ سبع سنوات؟ سأعتبر دائما انني خسرت القضية الوحيدة التي كان يهمني ان اربحها.

وتضرجت. هناك طراز من النساء تثيرهن الكلمة العارية وتحطم كل مقاومتهن اكثر مما تستطيع اللمسة ان تفعل، انهن حين يستمعن الى الكلمة العارية يعتبرن ان اصعب حواجز العلاقة قد تحطم بل ان العلاقة العارية ذاتها قد حدثت فعلا وان ليس هناك اي مخرج لانكارها.

لقد اخذتها الى السيارة، وصعدت معها الى الطابق العاشر، وامام الباب وقفت اسألها بنظرات واضحة عن قرارها الاخير فقالت:

- سأقول لك لا، مرة اخيرة، وارجو ان لا تشعرك هذه اللا باهانة تغير في موقفك من قضية الارث.

ومددت يدي الى حافة الباب فتناولت المفتاح وانا اقول:

- ستربحين القضية انت، قلت لا ام نعم، لقد اشتهيتك قبلها والآن وسأظل اشتهيك الى الابد. ان انام معك، هذه هي القضية الوحيدة التي يسوءني ان اخسرها، اما فيما عدا ذلك..

وفتحت الباب فخطت الى الداخل مترددة بعض الشيء ولحقتها دون ان اتوقف عن الكلام، وحين جلست في الصالون احضرت لي بصمت كأسا من المارتيني، وجلست على المقعد المقابل، وقالت بهدوء:

- الآن استطيع ان افهم لماذا تربح قضاياك دائما.

وابتسمت، ثم ضحكت وهي تدفع رأسها الى الوراء فبدت ضجيعة تسخر من قدرة الرجل على امتلاكها، وسألت وهي تطوي خجلها في ضحكتها حتى لا يستطيع الرجل ان يميز بينهما:

- هل فكرت جيدا؟

وقبلت هذا الحل دونما نقاش، لقد رمت المسألة على كتفي واعتبرت نفسها في المكان الاقوى،بالنسبة لها كان القرار اغلب الظن هو مزيجاً من اشتهاء لا يصد، ومن صفقة قضائية صغيرة ايضا ومن شعور صاعق بانها انثى ما تزال تستعصي على الامتلاك من قبل رجل واحد. وفوق ذلك كله، من مصادفة مليئة بالتناقضات والاثارة، ومثل كل مصادفة، فهي مغامرة عابرة لا تترك في حياتها بصمات خطيرة.

لقد تركتني انظر الى فخذها وهي تطوي ساقا على ساق، كنا في

الواقع وراء مجرد هذه المرحلة، لقد تحدثنا قبل قليل عن الفراش ولم يعد ثمة اي حرج في الحديث ـ او في النظر ـ الى كل ما يقع قبل ذلك.

وحولتها اصابعي الى نمرة، واوقدت قبلي خزان النبيد في اعماقها فالتهبت، وقد تم الامر بلا طقوس، على ذلك المقعد الطويل في غرفة الجلوس، وحين طحنتها اللذة القت برأسها الى الوراء وتصورتها، لوهلة، جثة.. وبدا لي ذلك التصور دون ضير، فقد كان ذلك، منذ الآن، هو الطريق الوحيد للخروج من حياتها دون ان افقدها ودون ان افقد ديما.

واعطيتها سيجارة فدخنت لاول مرة ودخنت معها بهدوء فيما كانت كفي الاخرى تتحسس جسدها الدافىء، الناعم، والمستسلم حتى النهاية.. وفجأة طلبت مني ان اغادرها بهدوء وان اتركها حيث هي، واخذت تنظر الي وانا البس ملابسي كأنها هي التي تبقى وانا الذي امضي، ومضيت، دون كلمة، ونزلت.

وعاد سعيد مساء اليوم التالي، وقد اتصلت ليلى بي لتقول لي ذلك كأنها كانت تخشى ان ازورها، وعرفت، بعد ان وضعت الهاتف، انها تتوقعني دائما.

ولكن الامر بالنسبة لها كان اكثر من ذلك، كانت الآن تمتلك شيئا لا يعرفه سعيد ولا يمكن ان يعرفه: لقد ارتدت الانثى فيها الى مواقعها الاولى الغامضة المليئة بالاسرار والغموض المثير، وصار سعيد بالنسبة لها رجلا لا يعرفها تماما وبالتالي اكثر جدارة بالحب.

كيف يمكن للقانون ان يفهم ذلك؟ كيف يمكن له ان يعرف بان

الحب الانساني لا يعني الانفراد؟ كيف يمكن له ان يدرك ان ما فعلته ليلى لم يكن في الواقع الا دفاعا عن انوثتها امام الرجل الذي تحب حقا؟

ولكن الامر بالنسبة لي، كان اكثر بساطة. لقد حاولت ان اقول كيف استطاعت تلك اللحظات العابرة في النادي الليلي ان تنمو دون سيطرة من احد الى ذلك الحد.

ان الحقيقة الوحيدة في هذا العالم، ايها السادة ليست القانون، ليست اي نوع من القانون، ولكن النساء. اقول النساء، لا المرأة الواحدة، لان المرأة الواحدة سرعان ما تضحي عادة، وكي نهز هذه العادة ونجعل منها شيئا ممتعا فاننا ملزمون بكسرها.

ان ليلى الحايك لم تخن زوجها - ستبدو هذه الجملة مضحكة للوهلة الاولى، ولكن اذا كانت حقا غير صحيحة فان علاقة ليلى الحايك بزوجها اذن هي حقا علاقة تعسة ، وبماذا يمكن ان توصف علاقة يومية بين رجل وامرأة الا بانها تعسة اذا كانت قيمتها كلها هي الفراش؟

اننا حين نعتاد زوجاتنا وعشيقاتنا، فان كمية الفراش في حبنا لهن تصبح كمية صغيرة، ونحن حين نذهب الى الفراش مع امرأة اخرى فاننا لا نعطيها حبا ولكن نعطي انفسنا اكتفاء من نوع لم يعد من اليسير الحصول عليه في فراش الزوج والزوجة.

ليلى الحايك لم تحبني، وانا لم احبها، وقد ذهبنا الى الفراش تحت دافع من المصادفة والاشتهاءوالتغيير، ونحن لم نستعمل في علاقتنا حصة زوجها منها او حصة زوجتي مني ولكننا استعملنا القوة الفائضة التي افرزتها المصادفة والشهوة خارج طوق العادة.

ان الحب الذي ينمو بين الرجل وزوجته هو حب، بالطبيعة، يدفع الجنس من مغامرة الى واجب ، ولكن الجنس هو في الاساس مغامرة متوهجة ولذلك تضحي اقل اهمية من الحب، ولكنها ضرورية له في وقت واحد.

ان علاقتي بليلى الحايك جعلت من ديما انسانة اكثر معنى مما كانت واقل عادية مما هي. ان حبي لها لم يقل، ولم يزدد بالطبع، ولكنه اختلف، وهذا شيء ضروري اذا اردناه ان يبقى.

ان الزوجة هي قيمة اجتماعية رائعة ولكن كي تظل انثى يتوجب علينا ان نعرفها اقل، وكي نجعلها تتوقد اكثر يجب ان نحولها، كلما مضت للفراش، الى امرأة اخرى - امرأة ثانية.

هل تفهمون؟

ان هذه المسألة لا علاقة لها بكمية الحب، ولكن بنوعه وبتجدده فقط.

ان الزواج هو مصادفة نعطيها معناها بقرار، ولكن ذلك القرار لا يعوض قرارا آخر في اعماق الزوج بأن ينام مع امرأة اخرى.

ان كل زوج يطوي نفسه على قرار عميق بان ينام مع كل نساء العالم اذا استطاع ذلك، ولكن ذلك القرار ينتظر المصادفة كي يصبح واقعا.

ان الزواج هو مصادفة نعطيها معناها بقرار، ولكن النوم مع امرأة اخرى هو قرار تعطيه المصادفة معناه وواقعه.

ولم تكن علاقتي مع ليلى الا مصادفة توجت قرارين اتخذ كل منهما على

انفراد في اعماقي واعماقها، وربما دون وعي.

ان المصادفة ايها السادة هي قيمة واقعية في حياتنا، كالقانون والعدالة والجريمة، وقد جاءت تلك المصادفة لتعطي ليلى فرصة لاثبات انوثة مسلوبة هي سلاحها الوحيد في اعماقها امام زوجها، وجاءت لتعطيني، دون ان اقصد، تجديدا لعلاقتي بزوجتي.

ولكنها فوق ذلك كله جاءت لتلبي حاجة دفينة هي حاجة الرجل الى المرأة وحاجة المرأة الى الرجل في لحظة تقع خارج فتور العادة والواجب.

ورغم ذلك فهذا شيء لا يمكن تفسيره بمعادلة حسابية باردة، وانا ادفع الآن ثمنا عادلا لهذه المصادفة غير المعترف بها، وقد اكتشفت، انا الذي عشت سنواتي العشر الاخيرة بين مواد قانون حسابي صارم، ان هذه المصادفة هي قوة مقررة، فوقنا جميعا لانها تلبي حاجة في اعماقنا جميعا، لها فعل الواقع.

* * *

لست اذكر ان شيئا بارزا حصل بعد ذلك.

لقد مضت القضية تتعقد وتزداد تعقيدا في اروقة القضاء، ولسنا ندري الآن كيف نبع عدد لا يحصى من الشهود، جاؤوا من اعماق الماضي يتحدثون عن والد ليلى الحايك، بصورة متعادلة... وفي الوقت ذاته لم تنقطع علاقتي بليلى على الرغم من انها لم تتطور، لقد تكشفت لي هذه المرأة عن بئر من الاشتهاء لا يمكن سبر غورها ووجدت، معي، فرصتها التي لا تعوض لتضحي امرأة اخرى تحقق معي في الفراش ما لا تستطيع تحقيقه في اي وقت ولا مع اي انسان،

لقد انتقمت لنفسها من كل واقعها الذي اضحت تعتبره المسؤول الاول عن نوبات فتور كانت تتموج في علاقاتها بزوجها بين الحين والآخر. كانت تتصرف معي كأمرأة ساقطة، تحكم الرجل الذي امامها بكل قوتها وخبرتها، كأنها حين كانت ترمي بنفسها عارية في ذراعي انما كانت تتلبس شخصية اخرى تماما، موجودة في اعماقها، ترد بها على ما عرفه الناس عنها من وقار واتزان، لقد اضحيت، بدوري، واحتها الوحيدة داخل ذاتها، وليس خارجها، تعيد معي، في لحظات قليلة خارجة عن منطق حياتها، ترميم انوثتها امام الرجل الذي كان، من حيث لا يدري، يحاول تحطيمها.

ولم يكن سعيد الحايك حتى على شك في علاقتنا، ذلك ان ليلى لم تكن تحب رجلا آخر امامه بل كانت تحبه بصورة اكثر عمقا وتمكنا، ولم تكن ديما تشك ايضا بأي شيء لانني كنت وما ازال الرجل الذي يحبها بصورة لا يمكن ان تفتر.. لقد كان الخطر الوحيد الممكن هو فقط في ان تنمو علاقتي بليلى وراء تلك المغامرة المصادفة، ان اضحي بالنسبة لها اكثر من مجرد وسيلة، وان تضحي بالنسبة لي مجرد عادة - اي حب.

سيبدو غريبا عليكم ايها السادة ان لا اجد فرقا بين العادة والحب، ولكن الامر، لو تفكرتم به قليلا، هو ذلك.. ولذلك كنت اقول قبل قليل ان الفراش، حين لا يكون عادة، فهو شيء لا علاقة له بالحب وان الحب الحقيقي ليس فراشا فقط.

لقد مرت ايام كثيرة خلال الاسبوعين اللذين سبقا اعتقالي لم اشهد فيها ليلى الحايك، كان سعيد في المدينة وكانت تحرص على ان تقضي كل اوقاتها معه، ولست اذكر الآن انها زارتني خلال هذين الاسبوعين الا

مرة واحدة، وقد جاءت برفقته بناء على نصح المحكمة لهما بان يحاولا الوصول معي الى صلح.

لقد جلست هناك، مع زوجها، كأنها لا تعرفني الا كما يعرف المرء محامي خصمه فقط، وقد وافقت انا بدوري على صلح ولكنني طلبت لموكلي ثلثي الارث، وقد فوجئت ليلى، وافتعل سعيد الحايك المفاجأة ولكنني كنت اعرف انه كان شديد الرضى، وغضبت ليلى ولكنني شرحت لها انه ليس بوسعي ان ارفض شروط موكلي سواء اعتقدت بعدالتها ام لا، وان جل الذي استطيع ان انصح به هو متابعة الدعوى في المحكمة.

ولاول مرة ذكرت ليلى شيئا عن وثيقة تستطيع ان تحسم القضية كلها، وقالت ان تلك الوثيقة اضحت الآن بحوزتها وانها ارادت الصلح ليس لانها تعتقد بصحة ادعاءات الوريث ولكن لانها لا ترى خيراً في ان تختصر الوقت، وان يخرج الشاب الارجنتيني الذي كان لسبب من الاسباب محط اهتمام والدها بمبلغ ما من الارث.

ونظرت الى زوجها استعين به، الا ان وجهه ظل جامدا فقلت لليلى انني ما زلت عند وعدي، واذا استطاعت وثيقتها ان تحسم الامر فعليها ان تقدمها للمحكمة وانا اقبل بالنتائج.

وعند ذاك قالت ليلى ان الامر يحتاج الى شيء من الوقت، وانها اخطأت حين اعتقدت ان الشاب الارجنتيني يستحق العطف، وسترفض الآن اي حل غير ذلك الذي ستقرره المحكمة.

وقال سعيد الحايك شارحا: لقد حصلت ليلى من حيث لا ادري على

وثيقة مهمة، كما تقول، تستطيع حسم القضية، الا انها لم ترني الوثيقة حتى الآن ولم تقل لي كيف حصلت عليها . .

وابتسمت ليلى بثقة المرأة التي تحتفظ لنفسها بسر رهيب ـ وانا الذي اعرف هذه الابتسامة ـ اعرفها لانني شريك في واحدة مثلها، فهل اكون الآن، يا ترى، ضحيتها؟ ان ليلى يروقها ان تكون مطوية على سر، امام زوجها تحتفظ لنفسها بسري، وامامي ـ الآن ـ تحتفظ بسر هذه الوثيقة الطارئة، لم يكن زوجها اقل حيرة مني، وبدت لي تلك اللحظة مستمتعة حتى الثمالة حين نجحت في وضعنا معا داخل قفص، كحيوانين حبيسين يجهلان الحقيقة.

وقلت لها محاولا استدراجها:

ـ دعيني ارى تلك الوثيقة لاقدر لك قيمتها في دعواك.

وابتسمت، تلك المرأة المتمنعة التي يروقها ان تكون صعبة على الامتلاك:

ـ لن تلعب هذه اللعبة معي . . انت الخصم الذي يريد لموكله الثلثين، وستخرج من هذه القضية كلها بايد بيضاء، تصفر.

واستدركت:

ـ هل اتفقت مع ذلك الافاك على مبلغ مقطوع ام على نسبة مئوية من الارث؟

ـ على نسبة مئوية مما استطيع تحصيله له.

ـ ايها المسكين! اذن ستخرج بلا اي قرش.

وتحديتها:

ـ لا تلعبي على اعصابي.. ليس ثمة وثيقة في الامر..

وهزت رأسها باسمة:

ـ سنرى.

وسألت زوجها:

ـ اتعتقد حقا يا سيد سعيد انها تمتلك تلك الوثيقة؟

ـ لست ادري..

ـ لو رأيت تلك الوثيقة لصار بمقدورنا ان نصل الى صلح.

ولكنها نهضت، وحين شاهدت خصرها وردفيها داخل ذلك الثوب الاسود الضيق، وابتسامتها الغامضة، اكتشفت حقا كم يمكن للمرأة الغامضة ان تكون مثيرة ومشتهاة حتى لو كانت تطوي تحت غموضها وثيقة لا تهم احدا، انها تعطي نفسها، دون ان تعي تماما، تلك الانكماشة الانثوية الفريدة التي تجعلها تبدو ابعد من ان تؤخذ وبالتالي اكثر جاذبية ونداء، وحين كنت اودعهما، امام طاولة السكرتيرة هناء في الخارج، قال لي سعيد الحايك انه يعتزم السفر غدا لمدة لا يستطيع معرفتها الآن، ورجاني ان اقدم النصح لليلى بصفتي خصمًا شريفاً، اذا ما احتاجته اثناء غيابه.

وسافر سعيد، كما قال، صباح اليوم التالي ـ صباح اليوم الذي حدثت فيه الجريمة، وطلبت من هناء في الظهيرة ان تصلني بليلى التي قالت لي انها تتوقعني ذلك المساء، في تمام السابعة.

عند الظهيرة اشتريت زجاجة عطر من النوع الذي تستعمله ووضعتها في درج مكتبي.

في السادسة - وهو الموعد المحدد لانتهاء العمل في مكتبي - انهيت اوراقي وغادرت المكتب، وقمت بجولة طويلة في سيارتي، وتذكرت انني نسيت زجاجة العطر فعدت الى المكتب، كان مغلقا بالطبع ففتحته وذهبت الى غرفتي، وحين كنت احاول وضع الزجاجة في جيب معطفي الداخلي، دخل البواب، الذي لفت نظره الضوء في غير وقت العمل وما لبث ان اعتذر وقبل ان يخرج رآني البس قفازي.

نزلت، وقدت سيارتي واوقفتها في مكان بعيد، واخذت المصعد الى الطابق العاشر.

قرعت الباب مرة ومرتين فلم اسمع جواباً، شعرت بالغيظ واكتشفت في لحظة واحدة ان كل العالم الذي بنيته في رأسي هو وهم محض، وكي اوضح لليلى انني جئت افرغت علبة سجائري، وكان فيها خمس لفافات، من ثلاث، وحاولت وضعها على حافة الباب كي تلمسها حين تجيء لتأخذ المفتاح، ثم رأيت ان ذلك شيء لا يبرر فيما لو شاهدها اي انسان هناك، فاستعدتها والقيتها امام الباب كأنما عرضا.

وحين اخذت المصعد وخرجت من البناء رأيت ان ما فعلته كان عملا صبيانيا، وان زوجها قد يرى العلبة فعدت ادراجي.

وفيما كنت انتظر المصعد تجمع ثلاثة رجال معي بانتظاره، وشعرت بالحرج، ثم ان الامر كان مجرد وهم فزوجها سيغيب اسبوعا على الاقل، فتركت المكان مرة اخرى.

قدت سيارتي على الشاطىء، ولانني كنت عائدا الى البيت فقد قذفت بزجاجة العطر، مغتاظا وحائرا، الى البحر، ثم اشتريت من مكان قريب علبة سجائر اخرى.

كنت مضطربا وغاضبا حين فتحت الباب، ولم اتناول العشاء، ومضيت صامتا الى فراشي، ولم اتبادل اية كلمة مع زوجتي.

وفي التاسعة والنصف صباح اليوم التالي اوقفت بتهمة قتل ليلى الحايك.

***

امضيت الليلة الاولى في حياتي مسجونا في غرفة ضيقة، ليس فيها الا لوح خشب مرفوع على اربع دعائم ومغطى بفراش رقيق ومقعد، تجولت من الحائط الى الحائط واضعا يدي في جيبي محاولا ان اكتشف مكاني بالضبط، ولم اكن استشعر قلقا ولكن نوعا من الغضب فقط، وكانت المفاجأة، هي التي هزتني وليست التهمة، ثم انني لم اكن معتادا النوم مبكرا.

كان المستقبل ما زال، حتى تلك اللحظة، يعني شيئا، وكنت اقيس وضعي في تلك الغرفة البعيدة عن كل شيء بالمقارنة مع اطلاق سراحي، الذي كنت متأكدا منه، وكان غريبا حقا ان اجد نفسي في موقف ليلى تماما، اعني في طرف مسألة حسابية يقوم شخص ما على الطرف الآخر، ولا اعرف من هو، بحلها معي. معركة شريفة بوسعي ان انتظر مطمئنا نتائجها، فقط لو اعرف بالضبط من هو خصمي.

لقد قررت ان اعترف بعلاقتي غير المشروعة بليلى، هذا شيء لم اكن

قد اكتشفت اية طريقة لتجنبه، وبدا لي انني سأدفع ثمنا غاليا لذلك الاعتراف، وانني لن افقد بعده زوجتي فقط ولكن سمعتي ايضا، التي تعتبر، في مهنة مثل مهنتي اهم بكثير من الكفاءة.

ولست ادري متى غفوت، ولكنني اعرف انني حين فعلت لم اكن قد توصلت بعد الى تقويم كامل وحقيقي لوضعي، فالعزلة، على الرغم من قصرها، وفقدان اي تفاصيل وعدم معرفتي الصحيحة بليلى وبزوجها وبظروف حياتها كانت تحول دون اكتشاف موقعي من هذه المسألة.

وقبل الثامنة اخذت، بحراسة ملفتة للنظر، الى غرفة المحقق من جديد حيث اصطف ثلاثة رجال اعرف اثنين منهم فقط، بانتظاري.

لقد قدمت القهوة اولا، وسمح لي بالتدخين، وكان الرجال الثلاثة يبتسمون كلما تلاقت ابصارنا عمدا او بالمصادفة. وكانت هذه المقدمة معروفة بالنسبة لي، وقديمة جدا ولكنها مفيدة للطرفين، واخيرا بدا الرجل الذي لا اعرفه يتحدث وكأنه في سهرة وليس في تحقيق، كان يدخن وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا واضعا يديه وراء ظهره، واقفا بين الفينة والاخرى ولفافته تتدلى من شفتيه، مضيقا عينيه ليتجنب دخانها الثقيل، اليفا وعائليا ومنطقيا بصورة لا تبدو، من فرط التجارب، الا مخلصة.

ـ نحن آسفون جدا يا استاذ صالح، لقد اضطررنا ان نمنع عنك المقابلات ـ لقد عاد السيد الحايك من رحلته مساء امس واراد ان يقابلك، وتستطيع ان تفهم لماذا منعناه، اننا لا نشعر بالاسف هنا ولكن فقط حين منعنا عنك زوجتك.

ونظر الى المحققين نظرة عابرة، كأنه يستشيرهما في أهلية هذا المدخل، ثم اكمل:

- جاءت السيدة زوجتك مع الاطفال.

ونظر الى الارض، وبدا فورا تعساً:

- كان منظرهم جميعا محزنا حقا.

وقلت، كي لا ادعه يكمل هذا الطريق:

- ولكن، يا سيدي، لا استطيع ان ارى مبررا لمنع المقابلات في هذه المرحلة على الاقل. كنت اود فعلا مقابلة السيد الحايك، لماذا منعتموه؟

- انه زوجها، كما تعلم.. ثم انه في حالة سيئة، لقد حاول الانتحار بعد سماعه النبأ ولكنه انقذ في آخر لحظة..

- وزوجتي؟

- لقد اقتضى استكمال التحقيق هذا الاجراء.

ولم استطع منع نفسي من العودة الى الموضوع:

- اخشى ان تكون قد فقدت اعصابها.

- ليس تماما، انها واثقة من انه لا علاقة لك بالامر، حتى انها كانت تنوي ان تقول ان علبة السجائر ليست لك، ولكنها متألمة لان الحادث، حتى لو ثبتت براءتك بعده، سيلحق الضرر بعملك، وبسمعة العائلة.

وفورا قررت ان انكر علاقتي بليلى، ليس من اجلي ولكن من اجل

زوجتي. لقد دخلت الآن في القضية وصار اعترافي بعلاقتي غير المشروعة بليلى خسارتها ايضا، وحتى لو ثبتت براءتي المطلقة من الجريمة فان مثل ذلك الاعتراف لن يقضي علي وعلى مستقبلي فقط ولكن على ديما ايضا، والاطفال، وذلك الحب الغريب، الذي لا يصدق، والذي اكنه لها.

وسألت:

ـ ان ما يهمني ان لا يكون الحادث او انتم، ايها السادة، قد اوحيتم لها بان علاقة غير مشروعة كانت تربطني بليلى؟

وتبادلوا النظر بصمت، ثم تولى رجل آخر الجواب:

ـ في الواقع سألناها عما اذا كانت تعتقد بوجود مثل تلك العلاقة ـ لقد غضبت اشد الغضب، ووجهت لنا بعض الاهانات.

وابتسم متسامحا، وناول الحديث لجاره:

ـ وليست لدينا اسباب لمثل هذا الاعتقاد، كل الذين يعرفونكما يستبعدون هذا الاحتمال، حتى زوج ليلى الذي حاولنا اقناعه بهذا ـ ان سمعتيكما...

وصمت، او واصل الكلام ـ لست اذكر الآن، ولكنني كنت قد انتهيت الى قرار: لن اعترف بعلاقتي بليلى ـ اولا لان تلك العلاقة ليس لها ادنى ارتباط بالامر كله، وثانيا لان ليلى يجب ان لا تدفع ثمن اعترافي الذي لن يحل اللغز باي حال من الاحوال، وثالثا لان مثل ذلك الاعتراف سيدمر ديما والاطفال وانا... والى ماذا سيؤدي؟ انه ليس ورقتي الرابحة في معركة براءتي فهو يثبت امكانية مفاجئة لحدوث

الجريمة، ولا يثبت عدم علاقتي بتلك الجريمة.

وسأل المحقق الاول، الذي كان قد اجرى تحقيق امس السريع:

- هل نبدأ؟

ولم ينتظر جوابا، فقد جلس وراء مكتبه وثبت نظارتيه، وفتح اوراقه:

- ما هي علاقتك بليلى الحايك؟

- انها صديقة قديمة لزوجتي. تلاقينا مصادفة في ناد ليلي، ولست اذكر الآن كم مرة رأيتها بعد ذلك، لقد زارتني مع زوجها عدة مرات في مكتبي بشأن قضية ارث العب فيها انا دور وكيل الخصم.

- وماذا كانا يريدان منك؟

- اقناعي بالتنازل عن وكالة الخصم.

- هل عرضا رشوة؟

- الزوج عرض، ولكنني رفضت.

- والزوجة؟

- الزوجة قبلت وعدا مني بان اكون قانونيا تماما وشريفا.

- لقد زارتك الزوجة منفردة بعد ذلك - لماذا؟

- كانت تخشى ان يقوم زوجها باغراء الخصم، وكانت تريدني ان احول دون ذلك.

- مقابل ماذا؟

ـ ليس مقابل اي شيء، ولكن التزاما بالوعد الذي قطعته لها.

ـ هل كنت واثقا من حق موكلك في القضية؟

ـ ان المحاماة لا تتعامل الا بالوثائق ومواد القانون، وعلى ضوء هذين الامرين كان يتوفر احتمال ما.

ـ الم تعرض عليك السيدة الحايك في اية مرة من المرات ان تتخلى عن هذه القضية مقابل رشوة؟

ـ كلا، ولكن في آخر مرة زارتني مع زوجها كانت تبدو راغبة في المصالحة.

ـ لماذا؟

ـ لانها ملت متابعة الموضوع، كما اعتقد، ولانها رأت ان لا مانع من خروج موكلي بحصة صغيرة.

ـ وهل شجعتها انت؟

ـ كلا.

ـ لماذا؟

ـ قلت لها ان موكلي، في حالة مفاوضات، لن يقبل بغير الثلثين.

ـ وهل اشترط موكلك فعلا هذا الشرط؟

ـ كلا.

ـ فلماذا اذن عرضته عليها؟

ـ كنت اريد مصلحة موكلي.

ـ على الرغم من وعد الشرف الذي منحته لها؟

وصمت وبدأت كتابة مطولة ثم قدمت لي لفافة وحين اشعلتها لاحظت ان يدي آخذة في الارتجاف، لاول مرة منذ بدأت تلك القضية، ولا شك ان ثلاثتهم لاحظوا ذلك فتبادلوا النظر، ثم بدأت الجولة الاخرى:

ـ حين عرضت على ليلى وزوجها ان الخصم كان يريد الثلثين هل كنت تعتقد انهما سيوافقان؟

ـ كلا.

ـ اذن لماذا عرضت العرض؟

صمت، مرة اخرى، ثم كتابة، وسؤال آخر:

ـ هل تعتقد ان ما يتوفر لديك من اوراق ووثائق كان كفيلا بانجاح القضية لمصلحة موكلك؟

وفكرت قليلا ثم قررت:

ـ كلا.

ـ ماذا كانت غايتك من مثل هذا العرض؟

صمت. كتابة طويلة. تبادل نظرات. لفافة اخرى اظهرت انني اطفأت لفافتي بعد رشفتين فقط. ثم نقلة واسعة:

ـ هل هذه العلبة لك؟

ـ اجل.

ـ هل كنت تزور السيدة الحايك تلك الليلة؟

ـ كنت احاول زيارتها لكنني لم اجدها.

ـ قلت امس انك كنت تشرب القهوة على الشاطىء؟

ـ كنت اقصد الفترة التي سبقت زيارتي للسيدة ليلى.

ـ ولماذا زرت الضحية؟

ـ لمتابعة الحديث عن الارث...

ـ هل طرأ اي جديد على هذه القضية منذ زارتك مع زوجها ليستلزم منك زيارة لها؟

ـ كانت قد تحدثت عن وثيقة حاسمة، وكنت اريد تقويمها.

ـ هل كنت تعرف ان زوجها غائب؟

ـ نعم.

ـ ما هو وضعك المادي؟

ـ انني اجتاز بعض المصاعب الآن، ولكن هذا شيء عادي وعابر.

ومضت لحظة صمت، ثم قذف المحقق امامي علبة السجائر وسأل:

ـ كيف سقطت هذه العلبة منك؟

ـ لقد رميتها لانها كانت...

وكنت اريد ان اتابع فأقول لانها كانت فارغة، الا انني لمحت من جانبها المقصوص، لفافتين فتوقفت، وفجأة انفتح باب مغلق في

جبيني، وبين دفتيه تكشفت لي صحاري مجهولة بلا حدود. مستنقعات من الرمل الشفاف وانا غارق فيها الى عنقي - واخذت الغرفة، والرجال، والايام الماضية، وكل شيء في هذه الحياة يدور في دوامة بلا قرار - اعصار شيطاني دق نفسه كلولب فولاذي في جمجمتي. واخذت اسمع صرير زنزانات تمتد الى النهاية، وزعيقا، وبكاء، وقرع طبول مجهولة، ونباحا وحشيا وعويل رياح مجنونة، والها اسمه المصادفة يقهقه ملء فكيه العاريين..

ووراء المحققين الثلاثة، والقانون، والجدار، والكلام كله، جلس ذلك الاله على عرش دموي صاخب. كان الآن قد صار خصما، وتكشف لي في لحظة كلمح البرق، انني انما انازل شيئا فوق القانون والمنطق ولكنه راسخ مثلهما، حقيقي اكثر منهما لانه - ببساطة - واقع مثلهما وربما اكثر. اله اسمه المصادفة، ظللت طوال عمري اعتبره الها عائما على سطح الواقع والآن انما ينازلني بواقع عائم على سطح المصادفة، ولست انا الذي استطيع فك اساري من اظافره الكريهة، ولكن صدفة اخرى فقط.

وفيما كنت اسمع عبر جدار كثيف من الاعاصير، كلاما غير مفهوم واسئلة تعاد وتكرر وتصرخ وتدق على الطاولة وتنهال على وجهي كان هرم آخر من الصخب يرتفع بسرعة لا تصدق في اعماقي: عشرات الالوف من العبيد يحملون كالنمل حجارته الدقيقة ويكومونها في صخب وعويل تحت سماء من القهقهات الراعدة، وفي وسط كل شيء كان الشاهد الوحيد صريعا مضرجا بالدم في غرفة مغلقة.

واطبقت شفتي، لاحبس الكلام والجنون. اطبقتهما في وجه كل

شيء، تاركا القضية كلها التي حدثت وانا مطبق شفتي تكمل رحلتها في عالم يستعصي على الضبط.

وقال المحقق:

- ان الصمت لن يساعد في حل القضية.

وانتظر الجواب، ولكن الاله الجالس وراءه مضى يقهقه، جاعلا منا كلينا في تلك الغرفة المغلقة سخرية مضحكة تقع كلها خارج الموضوع.

اتفهمون ايها السادة؟

ان المعركة لم تكن معكم، ولم تكن مع القانون، وقد اخترت النزال العادل الذي يقع وراء منصاتكم واقفاص الاتهام، وتركته يحاكمني وحده.

ومضى الرجل امامي مصرا على معقده:

- حتى لو صمت فلدينا كل جوانب الحقيقة، انت رجل مشهور يا استاذ صالح، والقضية رهيبة. كثير من الناس شاهدوك تلك الليلة وقد جذبتهم الفضيحة الى الشهادة من تلقائهم - بعضهم ليساعدوك وبعضهم ليقولوا الحقيقة.. ولكن لدينا من كليهما اوراق لا يحصيها العد.

واطبق صمت ثقيل، وتبادل الرجال النظر في حيرة مكتومة.

- لعلك تريد ان تستريح، او ان تفكر في شيء آخر تقوله. انت رجل ذكي وشهير وتعرف القانون جيدا، بوسعك ان تكون اذا شئت معينا للعدالة كي تأخذ مجراها، او عائقا صعبا امامها.. ووحدك الذي

يقرر.

وقاموا جميعا وبقيت جالسا، غارقا في ذلك المدى المجهول الذي لا يستطيع اي رجل يعتقد ان العالم مضبوط في قفص معرفة ابعاده ومعناه، نحن الآن نلعب لعبة مضحكة، نقيس العالم كله بمسطرة اتفقنا عليها دون مشاورته، نمنح الظواهر كلها اسماء واوصافاً دون ان نعرف ما هي، ما هي حقيقتها وحوافزها ـ ثم نعتقد ان ذلك كله قد مكننا من الحقيقة كلها. نحن اغبياء ايها السادة، شديدو الغرور والصفاقة، ولم اكن لاستطيع ان اقول ذلك كله لكم وانا الذي اعرف كيف تضحي النصوص في حياة الانسان الها بدائيا جديدا يفسر كل شيء ويحكم على كل شيء، فآثرت الصمت ـ تاركا الهكم القزم الكسيح الذي نصبتموه على قمة هذه الحياة، يصارعها وحده.

اما انا فقد كنت اعرف اني؛ مثلكم خارج الموضوع كله!

لا . . لم اكن اجهل معنى القرار الذي اتخذته، ولم اكن احاول ـ كما قال الادعاء فيمابعد ـ لعب لعبة ذكية . . لقد كنت ادرك معنى قراري ونتائجه ادراكا كاملا، بل انني اجرؤ على القول اني في تلك اللحظة على الاقل كنت ادرك معناه اكثر من اي انسان آخر.

لقد عشت كل عمري بين مواد القانون . . ليس ذلك فحسب بل تعرفون جميعا انني كنت اجيداستعمالهالخدمة دفاعي في اية قضية . . ان الاعتراف الآن بانني كنت في احيان كثيرة انجح في تبرير وجهة نظري بمواد قانونية وضعت لتبرير وجهة نظر معاكسة اعتراف لا يضيرني.

ولكن تلك اللحظة بالذات كنت بين فكي كماشة قوية طاحنة . . فانا المتهم وانا الذي ينبغي ان يدافع . . وبغض النظر عن ان مبدأ

الدفاع ذاته في قضية تتعلق بي، ومن هذا النوع كان غير منطقي فانني استطعت منذ البدء ان اشم بوضوح اطراف الفخ الحديدي الذي اطبق علي كما يطبق فخ صيد الضباع على كلب طريد في سهوب الجليد.

لقد عرفت تماما ان لا فرار. . . وعرفت انه سواء اكنت ضحية مجرم تفوق على كل احتياطاتي واوقعني ام كنت ضحية شيء لا يعترف به القانون اسمه المصادفة فان الهروب من الفخ اضحى مستحيلا. .

ثم ماذا ايضا؟

لقد كنت انا جزءا من الجريمة، رضيت ام ابيت. . كنت حجرا في ذلك البناء الدموي استخدمت من قبل قوة مجهولة استخداما بارعا. . . هل كانت حقا قوة مجهولة؟ الم اختر بنفسي - لسبب فوق قدرتنا جميعا - الدخول فيه ولعب دوري الذي انتهى تلك النهاية الفاجعة؟ الم إخط بنفسي الى القصة دون اي دافع خارجي؟ اكان من الممكن ان يتم الامر، على الصورة التي انتهى اليها، لو لم اكن موجودا ولو لم اختر ذلك الدخول الغريب في بنيان الجريمة الدموي؟

وعلى اي حال. . كان المحققون قد احتاروا قليلا امام صمتي. . ولكن القانون قد وضع لكل حالة علاجها وفقا لمسطرته المغرورة التي تتصدى لقياس العالم والناس كيفما كانوا واينما كانوا. .

وهكذا قرروا ان يجدوا شخصا آخر يتحدث عني!

* * *

لم يجد اول محام عينوه ليدافع عني اي شيء يقوله للمحكمة حين وجه بغزارة الدلائل ضدي من ناحية وبصمتي من ناحية اخرى، كان

على اي حال محاميا مبتدئا اراد ان يخطو الى عالم العمل فوق سمعتي، منتهزا تلك الفرصة الغريبة التي تعطى باسم القانون لرجل يرى ان مهمته هي البحث عن مخرج لرجل آخر من مأزق يعرف عنه اقل، وما لبث هذا المحامي ان رفض اكمال مهمته.

وحاول محام آخر، لم اكن قد سمعت عنه قبل ذلك اليوم، ان يتولى الامر، وقد صرف ساعة كاملة في زنزانتي يتكلم بطيبة صبورة عن حق الانسان في الحياة وفي الدفاع عن نفسه؛ وكان طريفا حين اقترح علي، بعد ان اعيته الحيلة، ان يسألني اسئلة لا احتاج في جوابها الا ان اهز رأسي نفيا او ايجابا، ولما فشل في هذه اللعبة الطريفة ايضا ابلغني، وهو غاضب ومحمر، انه يقبل التحدي وسيواصل مهمته الى نهايتها الغامضة.

كنت قد وضعت في زنزانة منفردة، شديدة القذارة ومظلمة بعض الشيء، وما لبثت ان تغيرت حياتي كلية، واستطاع ذلك الشيء الرهيب الذي يعيش في اعماق كل انسان والذي نسميه اهليته للحياة ان يعيد ترتيب القيم والبديهيات في رأسي بصورة تتكيف فيها مع ظروفي الجديدة، وشيئا فشيئا تضاءل العالم الخارجي، وكاد يختفي، بكل ما فيه هو الآخر من بديهيات لا يمكن استعمالها في زنزانة.

وقد مضيت صامتا ذات يوم، بين حارسين، الى حيث قابلت زوجتي واطفالي من وراء شباك حديدية ثقيلة، كانت ديما منهكة وحزينة ومحطمة وبدا الاطفال مدهوشين قليلا. وحين تمسكت بالشبك قربت ديما شفتيها الباردتين وقبلت اصابعي ثم اخذت تبكي، ويبدو انها رفضت ان تتحدث، او تلفظ اية كلمة لانها، كما اخمن، قد تعرضت لضغط

طويل من المحققين لحثها على اقناعي بالكف عن الصمت، الامر الذي جعلها تعتقد ان وراء صمتي توجد خطة ما لا تعنيها وليس من اللائق افسادها.

لقد قاومت، بقوة لم احتج الى مثلها طوال حياتي، ان احكي كلمة لزوجتي او ان اترك دموعي تسقط امامها، وفقط حين اخذوني بعيدا عنها اطلقت لعيني العنان.

وكانت المحاولات لحملي على الكلام لا تكاد تنتهي، واعلن المحققون عجزهم وكذلك الطبيبان اللذان احضرا لفحصي واقناعي، فيما ازداد اصراري الصامت على ان القضية برمتها لا يمكن ان تشرح خلال كلمات فقط.

لقد قلبت في رأسي طوال فترة وجودي في السجن كل الاحتمالات التي كان من الممكن ان تطرأ، واكتشفت تماما بان قصة علاقتي بليلى لا يمكن ان تساعد في تخفيف الاتهامات ضدي ولا يمكن ان تكون الا قصة اخرى تضاف الى الجريمة، كمشهد جانبي يهم الفضوليين ويعطي للقضية ابعادا مثيرة. وليس من الممكن ان اشرح للقضاء حقيقة قضية الارث، فلست املك اي اثبات لصحة اقوالي، وحتى لو ساعدت تلك الحقيقة على كشف جانب من الموضوع فانها لا تفسر شيئا، ثم انها كافية لتحطيم حياتي، بما يشبه القتل.

لقد صرت قانعا بان الذي رتب القصة كلها هو «شيء» اكبر من تسلسل الحوادث المنطقي، وان البطل الوحيد فيها هو قوة لا يستطيع القانون الاعتقاد بوجودها الا اذا جاءت لتثبت بطلان شيء حدث وليس حين تكون هي ذاتها وراء شيء يحدث.

وثبتت عزلتي وقيمي الجديدة هذه الاستنتاجات، فان انقطاعي عن الناس وعن الحياة اليومية التي عشتها ويعيشها الناس جعل المعاني العادية التي نعرفها عن الحياة تتراجع رويدا رويدا وتذوب امام نمو قيم جديدة.

من نحن، ايها السادة، ماذا نفعل؟ ماذا نريد؟ لماذا نحن؟ اسئلة نطرحها دائما ونحن على قيد الحياة ووسط صخبها، ولكنها اسئلة تتراجع في غمار حركة اليوم والدوران اللانهائي لايامنا جميعا، وليس ثمة مناص من مواجهتها حتى الاعماق حين يكون الانسان منفردا معها تماما.

لو كانت براءتي تعني شيئا لكان من المحتمل ان تتراجع تلك المواجهة الصارمة للاسئلة المقلقة. ولكنني، حتى لو برئت، فسأكون قد دفعت ثمنا غاليا جدا لما هو حقي المحض، انني العب ورقتين خاسرتين، مع قوة مجهولة حكمت علي مسبقا بارتكاب جريمة لم انفذها.

* * *

وحين عقدت الجلسة الاولى كانت القاعة مزدحمة، وسجلت لي صور لا يحصيها العد، وتلاقت عيناي، حين حدقت الى الصفوف الامامية، بعيني زوجتي وسعيد وهناء والمحامي الاشيب ووجوه عديدة اعرف بعضها ولا اذكر بعضها الآخر.

كانت الاستجوابات دقيقة، وذات ايحاءات ليس بوسع الكثيرين ممن لم يتمرسوا بالمهنة ان يعرفوا اين ستوضع في هيكل الاتهام، ولكنني كنت اعرف.

لقد استدعي سعيد في البدء، وكما توقعت فانه لم يشر الى قضية الارث، ولكن شهادته كانت، على اي حال، جيدة: فقد رفض الاحتمال القائل بوجود علاقة بيني وبين زوجته، ليس بسبب ثقته بليلى فقط، ولكن ايضا لثقته بي انا، ومضت الاسئلة سريعة، وفي مكانها:

ـ اين كنت يوم وقعت الجريمة؟

ـ في الارجنتين.

ـ لماذا؟

ـ كنت احاول الاتصال بخصم المرحومة في قضية الارث.

ـ لماذا؟

ـ اردت الوصول الى تسوية.

ـ وهل توصلت؟

ـ نعم، قبل الصبي عشر الارث ليسقط الدعوى.

ـ ولماذا اتصلت بالصبي وليس بالمتهم؟

ـ لأن السيد صالح كان قد طلب لموكله ثلثي الارث.

ـ هل كانت زوجتك على علم برحلتك الى الارجنتين؟

ـ اجل، وان كانت غير واثقة من نجاحها.

ـ هل كانت زوجتك تحاول ايجاد حل وسط مع خصمها؟

ـ كانت ترفض في البدء، ولكنها اخيرا قبلت.

ـ لماذا قبلت؟

ـ لقد اعتقدت ان والدها، لسبب من الاسباب، كان مهتما بأم الصبي رغم انها متأكدة من انه ليس ابنه، ولم تر بالتالي مانعا من مساعدته.

ـ ولماذا لم تطرأ لها هذه الفكرة منذ البدء؟

ـ لقد قررت فجأة، قبل يوم فقط من سفري، ان تنتهي من القضية بطريقة خاصة، واقنعتني بانها ليست بحاجة الى ارث والدها بسبب وضعنا المادي، وانها تنوي ان تخصصه لبناء مدرسة لايتام اهل القرية التي جاء منها والدها ولفقرائها، كانت تقول لي انها تمتلك وثيقة حاسمة وانها تستطيع ان تنهي القضية لحظة تشاء، ولكنها لم تمانع في محاولة تسوية سريعة.

ـ وماذا تنوي انت ان تفعل بالارث الآن؟

ـ بالطبع تحقيق ما ارادت، وقد استكملنا كل شيء في الحقيقة.

ـ اي انك لم تنل شيئا من ذلك الارث؟

ـ كلا.

ـ بمن تشك؟

ـ لا احد، كانت امرأة بلا اي عدو.

ـ هل تشك بالمتهم؟

ـ اطلاقا كلا.

ـ اذن لماذا تعتقد انه زارها اثناء غيابك؟

ـ لقد كان صديقا، وزوجته صديقة لزوجتي، ولست ادري كيف ولماذا قام بالزيارة، ولكنني اعتقد انه قام بها ضمن هذه الحدود ولسبب يتعلق بها.

ـ هل تعرض البيت الى سرقة؟

ـ بعض المجوهرات فقط.

وكانت، ثمة، اسئلة اخرى عديدة لم اعد اذكرها الآن، وحين غادر سعيد منصة الشهادة هز رأسه باتجاهي مواسيا.

لقد بكت زوجتي، على منصة الشهادة، اكثر مما تحدثت ـ روت قصة تعارفنا مع ليلى وزوجها، واسقطت حديثي عن ليلى، واكتفت بالتأكيد على انني قلت لها بان ليلى سيدة بليدة ـ وذكرت ان ليلى قالت لها بانني تصرفت معها يوم اوصلتها الى بيتها كتلميذ مدرسة يوصل خالته الى كوخها، وروت لها كيف انني تضرجت خجلا حين اطرت طول قامتي بعد ان ناولتها مفتاح المنزل من فوق الباب، وانني حين راقصتها كنت في منتهى الحرج والوقار. ورفضت ديما اي حديث عن علاقة غير شرعية بيني وبين ليلى، ولكنها لم تستطع ان تفسر زيارتي الاخيرة لها.

وجاء دور هناء فتحدثت عن هاتف طلبته لي ظهر اليوم الذي حدثت فيه الجريمة، ولكنها قالت انها لم تعرف ماذا دار فيه من حديث مع ليلى ـ وذكرت ان عدة مكالمات هاتفية كانت تحدث بيننا ولكنها لا تعرف طبيعتها ـ ثم روت تفاصيل عن حسن سلوكي وسمعتي، ونفت ان يكون هناك اي احتمال بعلاقات او اعمال غير مشروعة يمكن ان اقوم

بها.

وتحدث رجل عن قصة المصعد يوم الجريمة، وقال انني كنت ابدو مضطربا ولكن مظهري لم يكن يدل على اي عراك، وانني لفت نظرهم فقط حين غيرت رأيي وعدت ادراجي دون ان آخذ المصعد.

وقال بواب العمارة انني لم اوقف سيارتي امام البناء بالرغم من وجود متسع، وشهد حارس انني كنت قد اوقفت سيارتي على بعد خمس دقائق مشي من مكان البناء الذي تسكنه ليلى.

وشهد بواب العمارة التي يقع فيها مكتبي بانني رجل مستقيم، وروى انه في ليلة الجريمة شاهد ضوءا في مكتبي وحين دخله رآني اضع شيئا متطاولا في جيب معطفي الداخلي ولكنه لا يعرف ما هو، وحين سئل عما اذا كان يعتقد انه سلاح قال انه لا يستطيع ان يجزم، وسئل عما اذا كان يشبه المسدس ام السكين ام البلطة فقال انه اقرب الى السكين، وجاء احتجاج الدفاع على هذا السؤال متأخرا.

ثم سئل ان لاحظ شيئا آخر فقال انه رآني البس قفازاتي.

وقال رجل لا اعرفه انه شهدني انزل من سيارتي على شاطىء البحر قرب دكانه فأقذف شيئا هناك ثم اتجه نحوه فاشتري علبة سجائر، وقال انه فيما كان يعيد الي بقية النقود لفتت نظره الطريقة الغريبة التي افتح فيها علبة السجائر، وانه حين قرأ عن الجريمة في الصحف، وخصوصا عن قصة العلبة، رأى ان شهادته قد تفيد العدالة.

وقال ان ما رميته في البحر كان رزمة متطاولة لم يستطع ان يتبينها بوضوح، ولكنه نفى ان يكون قد لاحظ على مظهري اي اثر لعراك او

تصرف غير طبيعي.

وجاء شهود آخرون تحدثوا باسهاب عن فضائل ليلى الحايك، وبعضهم تحدث عني بعطف ولم يوفر مديحا.. وتحدث آخرون عن استقامة سعيد الحايك.

وحين كانت كل هذه الاصوات تدور في قاعة المحكمة، تصطدم بالجدران وتعود فتنقض علي بلا هوادة كنت - خارج كل شيء - اجمع الدلائل الصغيرة التي جاء بها الشهود جميعا واجد في ربطها معا قصة مثيرة قد يحسن الادعاء استعمالها ضدي اذا ما صاغها باحكام.

ولكن هذه الحقيقة كنت اعرفها منذ البدء.

بل كنت احس بانني لو كنت مكانه لما ترددت لحظة في صياغة قصة جريمة مثيرة قائمة على كل ما هو غير انساني وغير شريف.. حافلة بكل ما في هذا العالم من اندفاعات حيوانية ووحشية غير مسؤولة... ولكنني فيما بعد - وكما سترون - فوجئت بما هو اكثر من هذا، فقد استطاع الادعاء ان يروي قصة تكاد تكون حقيقية تماما!

وصمتت القاعة فجأة، واتجه القاضي الي، قافزا فوق التقاليد والعرف ربما لشعوره بان صمتي - ايضا - هو قفز فوق التقاليد والعرف.

كان في موقف لا يحسد عليه على الاطلاق.. وقد اجتهد اجتهادا صائبا كما يبدو فقرر ان يبدأ بنفسه توجيه الاسئلة الي، غير عابىء بصمتي، لمجرد ان يكون، في هذا التصرف، قد ادى واجبه واراح ضميره.

لقد سألني عن اسمي وترك فقرة صمت صغيرة متوقعا تماما ان لا

اجيب، ولكنه عاد فسأل عن عمري وكأنني اجبت سؤاله الاول، وترك فقرة صامتة، وسأل عن مهنتي ومحل اقامتي.. وكنا نبدو، ونحن ننظر الى بعضنا، مضحكين للغاية.. كمنظر مبالغ فيه في قصة وهمية!

وخلع نظارتيه ووضعهما امامه وشبك كفيه ثم استعرض الحضور والمحامين والادعاء كأنه يستشيرهم في حل.. وعاد فنظر الي مباشرة فبدا اكثر صرامة وحسما، وقال بصوت هادىء:

ـ ان صمتك ـ كما لا شك تعلم ـ لن يوقف العدالة عن مواصلة مهمتها.. وانت تعرف انه ليس في النية تعمد ظلمك ولكن صمتك قد يؤدي الى ظلمك من حيث لا ندري.

وانتظر هنيهة ثم اكمل:

ـ لقد استمعت الى شهادات عدد من الاشخاص.. انا آسف اننا سنضطر الى ممارسة اجراءات خاصة معك في هذه القاعة التي عرف عنها تمسكها الصارم بالقانون واجراءاته، ولذلك سمحت لنفسي ان اخاطبك بهذه الصورة وبهذا الاسلوب.. انني اعلن لك ان المحكمة ترغب حقا في الاستماع الى اعتراضاتك على شهادات الاشخاص الذين استمعت اليهم..

وصمت، محدقا الي بعناية كأنه ينتظر المعجزة ولما يئس عاد فلجأ الى تحديد اكثر:

ـ هل تعتقد ان الشهادات ـ او بعضها ـ كان كاذبا؟

وانتظر، وسط صمت جنائزي مطبق، صوتي الذي لم يسمعه... ولكنني في اعماقي اجبت: «كلا.. لقد كانت الشهادات صحيحة».

وعاد فسأل، بعد ان ترك فرصة كافية لم يسمع فيها جوابا:

ـ هل انت الذي قتلت ليلى الحايك؟ واجبت، في اعماقي: «كلا».

ـ هل تشك في احد قام بارتكاب الجريمة؟

واجبت، لذات نفسي: «كلا».

ـ هل كنت في بيت السيدة الحايك ليلة الجريمة؟ هل شاهدك البواب تضع شيئا متطاولا في جيب معطفك؟ هل رميت هذا الشيء المتطاول في البحر؟

قلت في نفسي: «زجاجة عطر ايها السادة!» وخيل الي انه لو كان صوتي اكثر علوا لانهارت علي في كل اطراف الدنيا قهقهات السخرية.. ولكنها زجاجة عطر ايها السادة!

نعم ـ قلت في نفسي ـ زرت ليلى الحايك. نعم، هذه علبة سجايري. نعم رآني البواب بعد الدوام البس قفازي واضع شيئا متطاولا في جيب معطفي. نعم حاولت الصعود الى بيت ليلى مرة اخرى. نعم، طالبت بثلثي الارث للوريث الارجنتيني. نعم. نعم. نعم.

ولكن الصمت كان كل شيء!

وسمعت القاضي يقول: «هل ترغب في ان تقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق»؟ واجبت ـ في اعماقي ـ «من الذي يعرف الحق كل الحق ولا شيء غير الحق؟ انا نفسي لا اعرف حتى حصتي من الحق فكيف استطيع ان اعرفه كله؟»

ونفد صبر القاضي فجأة ـ رغم انه كان منذ البدء يتوقع ذلك ـ واجتاحت الحضور موجة من الهمهمة ونظرت الى زوجتي فاذا بعينيها تلتمعان بالدمع الصامت. . وصاح صوت من الصفوف: «مجرم» فوجد القاضي في ذلك الصوت فرصة ليعبر عن نفاد صبره فطلب من الرجل الذي اطلق الهتاف ان يخرج من القاعة، ونظرت اليه رجلا صغيرا مسنا في المقاعد الخلفية يمضي الى الخارج بهدوء وكأن قوة ما ارسلته خصيصا ليقول ذلك ويخرج.

ووقف القاضي واعلن رفع الجلسة، الا انه طلب مني ان افكر اكثر في الامر. .

ومر المدعي العام قرب القفص فمال علي وهمس: «ستذهب الى المشنقة يا استاذ صالح. . صامتا ام صائحا. .»

وفي الجلسة التالية جاء المدعي العام وبسط القصة من اولها فدفع القضية ـ التي كانت حتى تلك اللحظة مسربلة بالغموض ـ تحت ضوء كاشف.

وفي الحقيقة ـ لو وضعت نفسي خارج الامر كله ـ فانه فعل ذلك ببراعة، وكانت الاستنتاجات كلها مربوطة بدقة في الدلائل. . لم يغامر كثيرا فقد كان يدرك حساسية الموقف تماما، واستطاع استخدام هذه الحساسية في سبيل وضع قصة اقل تطرفا مما لو كانت القضية عادية.

انني اتساءل ماذا تراه يشعر لو انه اكتشف فجأة ان الدلائل التي استخدمها لبناء قصته هي في الاساس دلائل قصة اخرى مغايرة تماما؟ هل تراه يترك مهنته؟ انني استبعد ذلك تماما لانه بدا لي وكأنه يؤمن في

اعماقه ان الاثباتات والدلائل هي مواد خام من حقه ان يعجنها ويصنع منها الهيكل الذي يريد.

ان كون الدلائل والاثباتات والقرائن حقائق قائمة بذاتها، لا تحتمل وجهين الا اذا غامرنا بذلك مغامرة غير مأمونة فكرة بعيدة جدا عن مهمته ومهنته.

وعلى اي حال، دعونا نلقي نظرة على الهيكل الذي بناه الاتهام من «المواد الخام» التي جمعها بعناية ليخرج منها بقصة للجريمة...

انني اضع، في قلب هذه الاوراق كلها، نسخة عن مرافعة الاتهام، كي تكتمل الصورة امامكم جميعا ـ وسوف اشطب المقاطع المتعلقة بالقانون ومواده من تلك المرافعة، كي تصبح الموازنة عادلة ـ وعلى اي حال فانتم تعرفون تلك المواد، ولا داعي لتكرارها، ثم ان الذي يهمنا منذ البدء كان ما حدث، وليس نسبة الى قوانين.

«طبق الاصل».

«لقد شاهدنا كثيرا، في هذه القاعة، محاولات لتجنب حكم العدالة. قبل اسبوعين فقط قام شخص تعرفونه جميعا بادعاء الجنون كي يهرب نفسه من جريمة بشعة ارتكبها ضد اقرب الناس الى الانسان ـ ضد الام.

هناك متهمون لا يحصيهم العد ادعوا الجنون، كذبوا، اصيبوا بالصرع، افتعلوا المرض، مثلوا محاولة انتحار، ولكنهم جميعا ما لبثوا ان واجهوا العدالة التي اعتقدوا ان بوسعهم الهروب منها.

لو سمحتم لي فانني ساقف امام هذه الظاهرة قليلا: لماذا يدعي

المتهم الجنون؟ او يفتعل الصرع؟ او يقوم باية محاولة من هذا النوع حين يقف امام العدالة وجها لوجه؟

ان الجواب المعروف بسيط جدا: فالمتهم يحاول الهروب من العقاب بصورة يائسة ولكنني اعتقد ان الامر هو ايضا اكثر من ذلك، انه اعتراف علني بارتكاب الجرم، فليس ثمة مبرر لاي من تلك التصرفات المفتعلة لو كان المتهم، امام ضميره على الاقل، متأكدا من نظافة يديه.

لقد كنت دائما اعتقد ان المتهم الذي يواجه المحكمة بشجاعة هو اقرب الى ان يكون بريئا من اولئك الذين يحاولون، في سبيل الهروب من عمل ارتكبوه، ان يظهروا للناس انهم يفقدون اهم ما يفتخر به الانسان، وهو العقل.

لماذا يضحي الانسان بسمعته العقلية الا اذا كان بذلك يحاول الدفاع عن شيء اهم؟ وكيف يمكن ان «يدافع» اذا لم يكن عاقلا - اننا بذلك ننتهي الى معادلة بديهية: انه يبرر بالجنون جريمة لا يقبلها العقل. اي انه يعترف بها.

نحن الآن نواجه حالة اخرى، تختلف شكلا، ولكنها تنتسب بالاصل الى مجموعة الظواهر التي عددتها.. لماذا يصمت المتهم امام الاتهام؟ لماذا يتخلى عن حق الانسان الاول في الدفاع عن نفسه الا اذا كان شاعرا بانه ليس ثمة ما يقال امام واحدة من ابشع الجرائم؟

انه يحاول بذلك ان يحرج القضاء، ويضع العدالة في مأزق.. ولكنني اعترف لكم انني شديد الحيرة امام عمل من هذا النوع يقوم به رجل كان متضلعا بالقانون.

ربما كان يعتقد ان الدلائل ستكون اقل. ولو كان هذا الاعتقاد صحيحا اذن لوضعنا فعلا في مأزق، ولكن الجريمة الكاملة، ايها السادة، لم تكن يوما حقيقة يمكن ممارستها.

ان تفسيري الوحيد هو ان المتهم، الذي سمعتم ها هنا شهادات لا تحصى بحسن سلوكه ويقظة ضميره، قد شعر انه قام في لحظة حمقاء بجريمة بشعة، وانه يعترف بها بالطريقة الفخورة التي يعتقد انها تليق برجل شهير مثله.. ان كثيرا من الرجال الشرفاء يعترفون، احيانا، باخطائهم علنا ولكنهم يعترفون بها دوما بينهم وبين انفسهم.. انني لا استطيع ان ارى في صمت المتهم الا اعترافا شريفا لنفسه، ولكن العدالة ايضا تطالب بحصتها، واذا كان هو قد اختار الصمت فلماذا لا تتولى العدالة الكلام؟

ما الذي حدث، اذا كان لا بد لنا ان نروي القصة كلها على ضوء الوثائق وكلام الشهود وجمع الواحد والواحد؟

السيد سعيد الحايك رجل اعمال ثري، يعيش حياة سعيدة مع زوجة رائعة الجمال من عائلة عصامية مات آخر رجالها في اول يوم بدأت فيه القصة التعسة، واورث ابنته الوحيدة ثروة طائلة.

وحين كان الوالد الشيخ على آخر رمق استطاع المتهم ان يعرف القصة باكملها، وحتى قبل ان يموت الشيخ كان الحديث عن ثروته يملأ المدينة، كما تذكرون ـ ولا شك ان المتهم فكر في الامر مليا، ولدينا ما يثبت انه قام باول اتصال مع شاب ارجنتيني افاك قبل اسبوعين من وفاة الاب، وعلينا ان نفترض بالمتهم ادراكه للقانون ومعرفته بخطر مغامرة من هذا النوع وهذا هو الذي يفسر الاتصال الغامض، الذي حدث

بالشاب الارجنتيني بواسطة رسالة مقصوصة من كلمات الصحف مغفلة التوقيع تلفت نظره الى قضية ارث وهو اثبات تكرس فيها بعد برسالة موقعة من المتهم للشاب، بعد انتهاء الاتصالات الاولية، موجودة في ملف القضية وفيها كلمة واضحة حول «اتصالات سابقة».

لقد تسلم السيد سعيد الحايك رسالة مماثلة لتلك التي تسلمها الشاب الارجنتيني، يجب ان نلاحظ ايها السادة ان هذه المدينة كانت مصدر الرسالتين ولم يكن المصدر من الارجنتين او اية بلدة اخرى في العالم. الرسالتان صدرتا من هنا، اي ان الذي كتبهما - المجرم الاول - من هنا.

لماذا ارسل المتهم رسالتين واحدة لكل طرف في دعوى لم تكن قد ولدت بعد؟ هذا سؤال مهم جدا ومعقد ايضا ولكنه اساسي.

لقد كانت الرسالتان محاولة اولى لخلق جو القضية - لم يكن المتهم يعتقد انه سيتعرف عن طريق المصادفة بعائلة الحايك بعد ايام من ارساله للرسالتين، ويبدو ان ارساله رسالة لعائلة الحايك كانت مقدمة لا بد منها لاقناع الشاب الارجنتيني بجدية المسألة - سنلاحظ هنا جملة ذات ايحاء كبير وردت في الرسالة التي ارسلت للوريث المزعوم، تقول تلك الجملة: «لقد ابلغت عائلة الحايك بالقضية، سننتظر ردود فعلها، لا تتحرك قبل اتصال آخر».

فما الذي كان يتوقعه المتهم من عائلة الحايك؟ بكل بساطة لم يكن يتوقع شيئا، فعائلة الحايك كانت متأكدة من زيف الوريث، وكان المتهم يعرف هذه الحقيقة تماما وكل الذي اراده هو وضع الوريث المزعوم في جو القضية تمهيدا لاتصال آخر معه يحدث بعد وفاة الاب،

الذي كان يعاني آنذاك من غيبوبة عميقة متصلة استحالت معه محاولة تسجيل رأيه في هذه القضية، على الرغم من المحاولة التي بذلها سعيد الحايك.

ما لم يتوقعه المتهم هو ان يتعرف الى عائلة الحايك قبل بدء القضية، ولكن المصادفات تدخلت هنا فاذا بسعيد الحايك يطلعه على ما اعتقد انه لا يعرفه، وقد ذكر السيد الحايك في شهاداته انه هو الذي طالب المتهم بتولي القضية عن الخصم، لانه كان يثق به وبما اعتقد انه نزاهته، وحسب ان محاميا كبيرامثله، له سمعة مرموقة، لن يلعب لعبة التزوير والمساومة والرشوة.

انتم تعرفون ايها السادة ان قضية مثل قضية الارث هذه تكون عادة مجالا سهلا للتزوير، بوسع محام لا يحترم مهنته ان يستجلب عشرين شاهدا بالرشوة يقسمون ان المرحوم قال لهم قبل عشرين سنة ان له ابنا غير شرعي في الارجنتين، ونحن نفهم خشية سعيد الحايك من نهاية مثل هذه، ونفهم لماذا حرص على ان يدفع المتهم لتسلم قضية الخصم ظانا عن حسن نية وطيبة قلب انه سيضع القضية في ايد امينة.

وقد وجد المتهم هذه المناسبة فرصة نادرة لاكمال خطته، ولو لم تحدث لكان على اي حال سيتولى قضية الوريث الذي كان ينتظر «اتصالا آخر» كما وعدته الرسالة المغفلة التي توقعها، الآن سنحت للمتهم فرصة ان يبدو شريفا حتى امام الخصم الامر الذي يسهل عليه تنفيذ مهمته، وقد اتصل ـ كما كان متوقعا ـ بالشاب الارجنتيني وذكر في رسالته كلمة لا يعرف سعيد الحايك معناها، ولكننا نعرف هذا المعنى الآن ـ كلمة تقول «بناء على اتصالات سابقة».

لقد قدم المتهم القضية بسرعة كبيرة،انني اتساءل امام المحكمة ان كانت كل الاوراق التي قدمها بعد وفاة والد ليلى قد جمعت بهذه السرعة بمجرد المصادفة. . لدينا قناعة بان هذه الاوراق كانت معدة منذ زمن بعيد.

لقد وصلت اوراق ذات اهمية كبرى الى المتهم، من اين؟ انه لا يجيب على السؤال، سعيد الحايك يقول ان المتهم ذكر امامه مرة انه تلقى تلك الاوراق بالبريد المغفل. . يجب ان نكون اغبياء، ايها السادة، لنصدق هذا الادعاء، الشاب الارجنتيني لا يعرف شيئا عن هذه الاوراق. . . اليس ذلك برهانا على ان هذه الاوراق المعدة كانت في حوزة المتهم منذ زمن بعيد، وانه ابرزها في الوقت المناسب؟

ونحن الآن نتساءل عما اذا كان لقاء المتهم بسعيد الحايك لاول مرة هو مصادفة حقا. . انا آسف انني لا استطيع اثبات ذلك بالبراهين، ولكن ساحتفظ لنفسي بالشك في هذه المصادفة الغريبة. .

هل كان المتهم يريد التعرف الى عائلة الحايك؟ هل كان تعرفه بهم مصادفة ام خطة وهو الذي لا بد ان يكون على علم بصداقة قديمة بين زوجته وزوجة سعيد الحايك؟

لماذا اعتقد انه كان يريد التعرف بعائلة الحايك؟ سأسمح لنفسي ان الجأ الى افتراض، بالرغم من انني درست امامكم ها هنا الاحتمال الآخر، الاحتمال الذي يقول بان تعرفه بآل الحايك كان مصادفة محضة. . لقد كان يريد التعرف بعائلة الحايك ليرتب وضعا يستطيع بموجبه ان يلعب دور المساوم وراء ستار من الصداقة الشخصية، وسنرى ان ما حدث فيما بعد يجبرنا على عدم اسقاط هذا الاحتمال

نهائياً ـ لقد جرت المساومة كلها وراء ذلك الستار من العلاقة الشخصية. . هذا امر سترونه بانفسكم الآن.

الآن ، ما هي قصة ذلك الشاب الارجنتيني الذي بادر الى رفع دعوى يطالب بحقه في ارث الرجل الذي مات مدعيا انه ابنه؟

حين ذهب محجوب السيد، والد المغدورة ليلى، الى الارجنتين قبل نصف قرن تقريبا كان مجرد فلاح مغامر لا يعرف احدا ـ وقد وجد في بيت سيدة ارجنتينية في مقتبل العمر، ارملة ووحيدة، ملجأ امضى فيه سنواته الاولى الصعبة ـ وقد اشرفت تلك السيدة الفقيرة النبيلة على الشاب الشرقي الحائر الى درجة لم ينسها محجوب، رغم كل شيء، طوال عمره.

ان ما اقوله هنا ايها السادة مدعوم بشهادات عديدة مستقاة من شهود يعرفون محجوب في المغترب. لقد استطاع الشاب الطموح آنذاك في قصة مشرفة حقا وصعبة اكثر مما نتصور، ان يشق طريقه الصاعد: فترك بيت الارملة الشابة واضحى يعيش في مجتمعات مختلفة تماما لم تنسه على بذخها ونبلها واصالة محتدها المرأة التي امسكت بيده حين كان وحيدا.

كان يرسل لها كثيرا من الفلاحين الذين يطلبون مساعدته، ينزلون في بيتها المتواضع الى ان تشتد اعوادهم وكان هو الذي يدفع الاجر.

لقد مرت اعوام كثيرة قبل ان تأتيه الارملة ذات يوم وتعترف له بانها حامل، وان والد الجنين هو شاب مشرقي من اولئك الذين ارسلهم اليها، وعدها بالزواج ثم اختفى عن الانظار.

هذا شيء حدث قبل ثلاثين سنة ـ ان الشهود الذين ادلوا بشهادات حول تلك الفترة من الزمن يقولون ان محجوب كان قليلا ما يرى الارملة، وان علاقته بها حين اضحت حاملا، كان عمرها ١٥ سنة على الاقل ـ لقد كان رجلا شهما فلم يشأ ان يترك المرأة الى مصيرها التعس، فوعدها بمساعدة لمدى الحياة، وكتب لها فيما بعد رسالة موجودة في ملف القضية، يقول لها فيها حرفيا انه وان كان الولد ليس ابنه فانه يعتبره ابن بلاده، على الاقل.

من اين جاءت هذه الرسالة. . . هذه الوثيقة التي وجدت بين كتب الضحية؟ دعونا ننتبه الآن الى هذه النقطة: لقد كانت هذه الرسالة مع الضحية، وقال زوج الضحية في شهادته ان زوجته قالت له قبل مصرعها بايام، انها حصلت على وثيقة مهمة ـ هذه هي الوثيقة، بلا شك، ايها السادة.

لقد تولى المتهم الدفاع عن ارث الابن المزعوم مع معرفته الكاملة بحقيقة القصة. ان براعته كمحام وسمعته اللامعة وخبرته التي نعرفها جيدا، ان كل ذلك كان جديرا بجعله على بينة من نسبة الصحة في قضية من ذلك النوع. هو الذي اجرى الاتصال الاول، وهو الذي كان يفاوض السيدة ليلى وزوجها. وهو الذي كان يضع شروطا لم يسمع عنها الابن المزعوم ولم يطلبها يوما.

ان التحقيقات القليلة التي جرت مع المتهم، قبل ان يكتشف انه محاصر ويلتزم الصمت، تثبت ذلك بما لا يقبل الجدل: لقد اعطى الضحية كلمة شرف بأن يكون قانونيا ثم حين جاءت بادرة مصالحة طالب، باسم الصبي المزعوم، بثلثي الارث. . . فيما اعترف ايضا بانه كان قليل الامل بنجاحه بالقضية اساسا.

كان يمارس ضغطا على السيدة الطيبة، وكان الزوج الذي اراد ان ينتهي من كل شيء قد عرض عليه رشوة، صحيح انه رفضها ولكن ليس باسم الامانة كما قال، بل باسم المساومة.

قبل الجريمة بيوم واحد شعر المتهم، كما جاء باعترافه، بان الضحية التي كانت تصر على الاستمرار بقضية الارث حتى النهاية بدأت تميل الى انهائها بتسوية، ولكن لم يخطر على باله اطلاقا ان السيدة النبيلة كانت تريد ان تعطي الارث كله الى مشروع خيري.

لقد اشار السيد سعيد في آخر لقاء مع المتهم قبل الجريمة الى ان ليلى واثقة من النجاح، ولا توجد تفاصيل كثيرة عن ذلك اللقاء الهام، ولكن لدينا ما يقنع بان المتهم احس بان التيار بدأ يسير عكس ما كان يرجو: فقد تحدثت الضحية امامه عن وثيقة حاسمة.

عند الظهيرة اتصل بالضحية، والذي لا شك فيه ان حافزه الى الاتصال كان محاولة معرفة المزيد عن الموقف، ويشير ما حدث فيما بعد الى ان الضحية قد اشعرته باهمية الوثيقة الحاسمة مرة اخرى واثقة ما تزال بكلمة الشرف التي اعطاها لها.

وفي السادسة مساء كان المتهم قد توصل الى معرفة الموقف برمته، كان يعرف بأن سعيد الحايك قد ذهب الى الارجنتين ليجري اتصالاً مباشراً مع الخصم وكان يعرف بأن الخصم سيرضى الخروج من اللعبة بمبلغ يسير، وفي الناحية المقابلة كانت هناك الوثيقة التي ستحسم الموضوع حتى لو لم يحدث الاتفاق، فقرر ان يتحرك بسرعة.

السؤال الآن مزدوج: لماذا ذهب سعيد الحايك لمفاوضة الصبي في

حين أنه كان يعرف بوجود الوثيقة لدى زوجته؟ وبماذا كان المتهم يطمع من زيارة ليلى الحايك ذلك المساء؟

لقد ذهب سعيد الى الخصم بنفسه لأن ليلى كانت لا ترى مانعاً من أن يأخذ الصبي مبلغاً من المال لذكرى والدها الذي كان يهتم بأمه وبه طوال عمره، وقد قالت لسعيد ليلتها ان حصة الصبي هي حق.
ثم ان سعيد قال في شهادته انه لم يكن يعرف الوثيقة، وقد كان لا يثق بتقديرات زوجته لأهميتها، وأنه حتى لو كانت حاسمة فان الوقت الذي سيضيع في متابعة القضية هو محض خسارة للجميع... الاهم من ذلك كله ايها السادة ان ذهابه دون الاتصال بالمتهم بالرغم من انه هو الذي كلفه تسلم القضية دليل لا يدحض على ان سعيد الحايك نفسه كان يشك في حقيقة نيات المتهم.

اننا مضطرون لتصديق هذا الاجتهاد لان المبلغ كله، ايها السادة، قد دفع تبرعا لعمل خيري، ولان رحلة سعيد الحايك قد تكللت - رغم مناورات المتهم - بالنجاح.

ماذا كان المتهم يريد من الضحية؟
كان يريد ان يكمل المساومة التي بدأت بقصة الثلثين. هذا هو افضل احتمال لمصلحته وكان - اذا شئنا ان نمضي الى ابعد - يريد اخفاء الوثيقة التي ستفقد كل شيء، حتى لو ادى الامر الى قتل ليلى، ليخلو الجو للوارث الارجنتيني المزعوم، خصوصا اذا اختفت الوثيقة.

لقد غادر مكتبه في السادسة، في السادسة وخمس دقائق اغلقت سكرتيرته المكتب، بين السادسة والسادسة والنصف كان قد وصل الى باب بيت السيد سعيد الحايك. انه يعرف بان المفتاح موجود فوق حافة

الباب ذلك امر اعترفت به زوجته وحين مد يده لاخذه لم يجده، فعرف ان الضحية موجودة في الداخل ولكنه نسي ان بصمات اصابعه بقيت فوق غبار حافة الباب، فقد كان مشغولا بقرار آخر هو التخلص من ليلى والحصول على الوثيقة قبل ان يفوت الاوان.

عاد الى مكتبه، وفاجأه البواب الذي استغرب وجود اضاءة في غير موعدها، يضع شيئا يشبه السكين في جيب معطفه الداخلي ويلبس قفازاته.

عاد المتهم الى منزل الضحية فوضع سيارته بعيدا، واقتنص، كما في المرة الاولى، غياب البواب وصعد. ولا شك ان السيدة الضحية فوجئت به ولكنها بالطبع سمحت له بالدخول اعتمادا على سمعته وصداقتها لزوجته.

- ويبدو ان المساومة لم تفلح فقد كانت الضحية الآن في موقف جيد وحين هددها اتجهت الى الهاتف ولكنه لحق بها قبل ان تصله وطعنها في خاصرتها طعنة محكمة واحدة لا يستطيع ان يوجهها الى المقتل بهذه الصورة المتقنة الا جراح او خبير، وهو خبير في هذه الشؤون، وقد سمعنا كثيرا من مرافعاته التي تحدث فيها مطولا عن معنى الطعنة وما تظهره من شخصية الطاعن.

وقد سقطت الضحية بين مكان الهاتف والمقعد المفضل لديها في غرفة الجلوس - اي انها كانت في ذلك المقعد، وهي لا تجلس هناك الا اذا كانت تستقبل رجلاً ما.

لقد فتش بعد ذلك على الوثيقة ولكنه لم يجدها، وحين قطع الامل نهائيا زاد في التمويه فأخذ بعض المجوهرات كيفما اتفق واغلق الباب

بهدوء، كي لا يسمع الجيران ولكن حين كان يفعل ذلك اسقط علبة سجائره.

ولم يكتشف انه اضاع علبته الا حين صار قرب سيارته فعاد ليأخذها، ولكن حين تلاقى امام المصعد مع بعض سكان البناية خشي ان يفتضح امره فعاد ادراجه، وربما عاد لانه حسب ان العلبة قد سقطت في الداخل وصار من المستحيل عليه ان يفتح الباب.

وقـاد سيارتـه الى الشاطىء حيث تخلص من اداة الجـريمـة والمجوهرات، وكان من الممكن ان لا يلفت هذا الحادث نظر احد لو لم يتجه الى دكان هناك ليشتري علبة لفافات جديدة.

ان الوثائق والشهادات التي تدعم هذا المنطق موجودة في الملف: لم اترك شيئا للاستنتاج ولكني ربطت بين هذا العدد الكبير من الامور المثبتة وحاولت ان افسرها. ان الضحية بلا اعداء، وليس ثمة من هو مهتم بقتلها او له مصلحة في ذلك، ولكن مقتلها سيجعل من ذلك الافاك الذي اكتشفه المتهم الوارث الوحيد لثروة كبيرة، وبالتالي سيجعل حصة المتهم من الارث اكبر، بناء على اتفاق مسجل.

وكان المتهم يعرف بان ذلك الدعي المجهول سيرضى باقل من العشر، وقد اثبت الاتصال الاخير الذي اجراه سعيد الحايك بالصبي هذه الحقيقة، ولذلك كان مضطرا للاسراع في تصرفه، كي يخفي الوثيقة.

ان الصمت قد يخفي جانبا من الحقيقة، ولكن في هذه القضية كانت العين الساهرة للعدالة اكثر من ناطقة.»

لقد جمع ذلك كله ببراعة تستحق التقدير في الواقع، ولو كنت مكانه لما وجدت قصة افضل واكثر منطقية، ولما وجدت ـ مستعينا بكل قوانين العالم ـ عقوبة ارأف من الاعدام، الذي طلبه لي بصوت واثق ورزين.

لقد سرت همهمة مستثارة في القاعة، وحين نظرت الى وجوه الحاضرين لمست فيها اقتناعا كاملا ازاح من تقاطيعها الحيرة التي كنت اراها في الجلسات السابقة.

وفجأة ـ وراء الصمت المطبق ـ نبع صوت من الصفوف الخلفية وصاح: «مجرم».

ثم قام الرجل العجوز الضئيل واخذ يسير نحو الباب دون ان ينظر الي.

واندفعت زوجتي نحو القفص وادخلت اصابعها في شباكه، واخذت تصيح في نوبة من الهستيريا: تكلم يا صالح.. تكلم... ستموت!

دارت الجملة في رأسي واخذ بدني يرتجف، ونظرت فجأة الى المنصة فجاءت عينا القاضي تنظران مباشرة في عيني، وهز رأسه هزة خفيفة.

وصاح صوت آخر من بين الحضور:

ـ تكلم يا صالح .. تكلم.

وعادت زوجتي تصيح: ستموت يا صالح، تكلم!

واحسست ان جسدي اخذ ينضح بالعرق وبدأت شفتاي تتحركان كأنهما شقا فخ من القصب يهتز تحت ضربات جناحي عصفور مغلوب

على امره.

وصمتت القاعة ـ دفعة واحدة ـ صمتا مطبقا.

وكان الكلام قد وصل الى اسناني، وسط الصمت المطبق الذي ران على الجميع، حين جاءت ليلى الحايك فجأة الى رأسي.

وعرفت انني سأسقط: لقد اجتاحتني موجة من الحمى فتمسكت بالحديد وما لبث الحارس ان دفع تحتي كرسيا فجلست.

ورأيت زوجتي تنظر الي بشفقة ووراء كتفيها كان وجه سعيد الحايك قلقا وكانت الدموع تملأ عينيه.

ولكن ليلى الحايك وصلت.

وعرفت انني لن اتكلم.. عرفت ان حركة شفتي كانت ارتجافا بائسا ولم تكن قرارا بالكلام.. لقد كان قرار الصمت في اعماقي اقوى من ان يحطمه الخوف لانه كان وليد شيء آخر: لو كان وليد الشجاعة لحطمه الخوف ولكنه كان وليد الاقتناع.. كلا، وليد ما هو اكثر عمقا من الاقتناع، وليد الشعور بالعبث.

الم اقل لكم ان الفخ المنصوب في سهوب الجليد لصيد الضبع قد اطبق اسنانه الفولاذية على قوائم كلب طريد؟

لقد جاءت ليلى الحايك فملأت رأسي.

وفجأة اختفت المحكمة، والرعب، والارتعاد، وزوجتي.. واستلقت ليلى الحايك كسولة ومستثارة على الكرسي الطويل في غرفة الجلوس وتركتني استلقي على جانبها.

يا الهي كم كانت بشرتها طرية وصافية: اذكر انني وضعت كفي فوق نهديها فاخذت تنتفض واغمضت عيني وانا امتص، حتى الاعماق، ذلك التيار الغريب الذي اخذ ينضح في عروق راحتي من داخل صدرها ويطوف في جسدي مثل شحنة اللذة...

وقلت ـ يومها ـ كأنما لنفسي:

ـ غير معقول.

كانت عائمة فوق امواج المغامرة المثيرة، وسألت بصوتها الهادىء نصف النائم، الواثق والعميق:

ـ ما هو غير المعقول؟

ـ انت.

واندفعت تجاهي كأنما بفعل الرعدة والتهبت شفتاها على عنقي. كانت امرأة. امرأة. كانت كل النساء ايها السادة.. وانا حزين، يا ديما العزيزة، اذا ما قلت ذلك ولكن من الذي جعلها رائعة غير انت؟ لقد كانت رائعة لانها حطمت العادة، لانها اعادتك.

اتذكرين تلك الليلة التي اتيت فيها اليك متعبا ومتأخرا احمل كيسا من الكعك؟ تلك الليلة هي بالذات كانت ليلتي مع ليلى، وقد جئت يومها مباشرة من بيتها.. اتذكرين؟

قلت لي يومها حين قبلتك وانت تحضرين العشاء في المطبخ: انت تلتهب.. ما الذي حدث؟

الذي حدث انني كنت اريدك اكثر من اي وقت مضى... وانت

نفسك قلت لي، ليلتها، بعد ان استلقيت واخذت تلهثين الى جانبي: كنت مرعبا ورائعا، ما الذي تعشيناه؟ سأطبخ لك كل ليلة صحنا من السجق الحار ان كان يلهبك بهذه الطريقة...

لا. لم يكن السجق الحار يا ديما.. لم يكن السجق.. كانت ليلى، ليلى التي جعلتك دون ان تدري هي ولا انت جسدا مثيرا وجديدا.

كانت ليلى.. التي جاءت الآن الى قفص الاتهام ودخلت في ثيابي واطبقت شفتيها على صمتي.

كانت ليلى التي قتلت، والتي تحولت في رأسي - لانها ماتت - الى عشيقة حقيقة..

***

لقد انتظر القاضي فترة طويلة ان اتكلم.

كان يعتقد ان ارتعادي وارتجافي كانا مقدمة لتحطيم الصمت ولم يعرف - كيف؟ - انني كنت مع ليلى ومعك في لحظة خاطفة خارج المعقول.

ولكنه عاد فانتفض غاضبا. وقال شيئا لم افهمه - ذلك انني كنت اخرج لتوي من سريريكما - ثم صاح بي ان انظر اليه فنظرت. وسأل بغضب:

- هل فهمت كل شيء في المرافعة؟

وصمت، فيما قلت بيني وبين نفسي، «نعم».

- هل لدي اي اعتراض؟ اية ملاحظة؟ اي نقض؟

وترك لي فرصة ان اجيب ولكني صمت.

ـ لقد طلب لك الاعدام فهل تراني بحاجة لاشرح لك معنى ذلك؟

وظل الصمت مطبقا.. فيما عاد بعد لحظة يصيح:

ـ لقد روى الاتهام قصة الجريمة، وسمعتها بحذافيرها.. هل استطيع للمرة الاخيرة ان اسألك اعتراضك؟

وخيم الصمت عميقا وحاسما هذه المرة.

استعرضت مرة اخرى قصة الاتهام ولكنني لم اجد ـ مرة اخرى ـ ما يقال. الآن، فقط، استطيع ان اقول لكم ـ خارج منطق القانون وخارج مسطرة القضاء ـ انها قصة غير حقيقية.. ليس من حيث التفاصيل وواقعيتها فقط ولكن من حيث «قاعدة البحث» ايضا.

ان موجز القصة اذن هو ان «شيئا ما» قد رتب لي جريمة لم ارتكبها، جريمة قمت بكل شيء فيها ما عدا مسألة الطعنة، التي هي في الواقع جزء يسير جدا من مجموع الجريمة، وحتى هذه المسألة التي ربما تكون قد استغرقت نصف دقيقة على الاكثر لا استطيع ان اثبت بأني لم اقم بها.. فما هي الحقيقة ايها السادة؟ هل هي مجموعة براهين؟ هل هي مسألة حسابية؟ ان القانون لا يعترف بالنية، الا حين يفترضها هو، وهو لا يفترضها الا على ضوء سلسلة من البراهين، ولكن الى اي حد توجد علاقة بين البراهين والنية؟ بل الى اي حد يمكن ان تكون البراهين حقيقية.

لا شك انني كنت سأبدو مضحكا تماما لو حاولت ان اقول هذا في المحاكمة، انا الذي كنت دائما امثل دور الرجل الغاضب حين يحاول

رجل ما في حضرة العدالة ان يكون ذاتيا او رومانطيقيا او بعيدا خطوة واحدة عن القانون، فهل ترى هذا الكلام يعني شيئا آخر حين تسمعونه، انتم انفسكم، من فم رجل ميت؟

لنحاول ان ننظر الى مسألة العدالة بدءاً من طرفها الاخير، وليس من طرفها الاول كما جرت العادة. سأوضح ما اقصد. لقد جرت العادة ان يكون حكمها هو نهاية القصة. فلنحاول ان ننظر اليها حين نفترض ان ذلك الحكم سيكون مجرد البداية. نحن نقول عادة ان جريمة ما تستحق حكماً معينا، ونحل المسألة على هذه الصورة، فماذا يحدث لو سألنا عما اذا كان ذلك الحكم يوازن الجريمة؟

ان الجريمة هي سلوك ذاتي، واذا كانت العدالة تتميز، كما نقول، بأنها غير ذاتية فلماذا تلجأ الى الانتقام الذي هو قيمة ذاتية؟

هل العدالة اجراء انتقامي؟ نحن نقول لا. ولكن اذا قتلنا رجلا باسم العدالة لانه قتل رجلا باسم السلوك الشخصي فما الذي نكون قد فعلناه غير الانتقام، والانتقام بمقاييس شخصية ايضا.

ان الشخص يرتكب الجريمة، غالب الاحيان، بتخطيط شخصي، في احيان كثيرة يرتكبها دون تخطيط، في كلتا الحالتين نحن، باسم العدالة، نخطط وسيلة الانتقام، ولكن على مقاييس ذاتية وليس على مقاييس اجتماعية.

سوف يبدو وكأنني اعتبر نفسي قاتلا وانصرف الى مناقشة الحكم وعدالته، والحقيقة انني لا اعتبر نفسي كذلك، ولكن ما قيمة اعتباري

الشخصي امام ذلك الهيكل الكامل من البراهين، المبنية على مصادفات تكاد تكون وقائع مادية منطقية مسلسلة، في قلب ذلك الاله المقدس الذي نسميه القانون، والذي نجعله بصورة غير مباشرة، يمثل آراء ذاتية محضة؟

لقد شعرت باكتفاء غريب حين استمعت الى مرافعة الاتهام، وتأكدت اكثر من اي وقت مضى انني كنت في جانب الصواب حين اخترت الصمت، وعلى العكس فلو اطلقت للساني العنان لاسأت الى عدد كبير من الناس الذين احبهم دون ان اقدر على اثبات براءتي. ما الذي سأكسبه من تلويث ليلى؟ وما الذي سأجنيه من توريط سعيد؟ ان هذه القوة المجهولة التي رتبت الامر بكليته، متسترة وراء صمتي، هي التي يجب ان تتقدم من تلقائها لاثبات براءتي، ولو حدث ذلك، يا الهي لو حدث ذلك! ، يا الهي! سيضحي القانون مهزلة، وسيثبت لي انا على الاقل ـ وهو امر في منتهى الاهمية ـ ان الفي سنة من الاجتهاد لم تستطع ان تضبط العنصر البشري في قارورة.

لقد استمعت بصمت وتأمل الى مرافعة الاتهام، كان منطقيا، وقد استعمل الحقائق المتوفرة ليصل الى قناعات ليس فيها شيء كثير من التجني، ولم يكن بوسعه الوصول الى شيء آخر حين كان يستعمل المنطق البارد في حل مسألة غير منطقية.

القانون. ولكن اين هو القانون الذي يستطيع ان يتعامل مع مسائل لم يحدث ان استطاع الانسان اخضاعها للقانون؟ انا لا اتكلم عن المصادفة فقط التي وقعت ضحية كسيحة بين يديها، ولكنني اتكلم ايضا عن الغضب، عن الغيرة، عن الحب، عن الخيانة، عن الملل، عن

رغبة رجل يعيش مثل بقية الناس ويخطر على باله ذات يوم ان يكسر طوق العادة ليجعل من حياته شيئا فريدا وحارا وله نكهة، بمجرد ان يفعل يكون قد خطا الى خارج العالم الذي يحكمه قانونكم.

هل يستطيع القانون ان يغضب؟ ان يغار؟ ان يشعر بمرارة الخيانة؟ ان يمزقه الملل؟ ان يفهم منطق الخروج عن العادة؟ انه لا يستطيع لانه، كما نقول، ليس ذاتيا، فلماذا اذن يحاكم هذه الظواهر من الخارج، ثم يضع لها احكاما من منطقها؟ هل تفهمون ايها السادة؟ ان القانون لا يقبل بان يقوم رجل غاضب بارتكاب جريمة، ولكنه، كي يعاقبه، يقتله - كأنه هو ذاته هذا القانون رجل غاضب. لماذا لا يقبل الغضب ولكنه يقبل استعمال ادوات الغضب؟ لماذا ايها السادة؟ لماذا لا يقبل المصادفة ولكنه يعتمد عليها في اثبات الواقع؟ لماذا، ايها السادة، يأخذ من المصادفة اثباتا للواقع ولا يأخذ منها، هي التي تجيء في اعتقاده فوق الواقع او وراءه، عدم منطقيتها؟

وقف المحامي الشائب، ووجهه يكتسي بمسحة حزن حقيقية واخذ يهز اوراقه امام الناس محتارا اكثر مما هو في الحقيقة، كان ذلك كله اخلاصا ضروريا لطقوس العدالة، وكنت اريد حقا ان اعرف كيف سيدافع عني.

كان في موقف صعب، هذا شيء قدره له الجميع بما فيهم الخصم، ولكن في حالة مثل حالتي، على قدر ما علمتني خبرتي، يمكن لهذا الصمت ان يكون اداة ممتازة في الدفاع اذا احسن استعمالها، وكنت مشوقا لمعرفة الكيفية التي سيستعملها بها.

لقد طلب من المحكمة في البدء ان تقدر له ظروف القضية، فهو

يواجه من ناحية ادلة علمية ليس بالوسع دحضها، من حيث انها ظواهر لفعل ما، وهو من ناحية اخرى يواجه ما هو اقسى من ذلك، يواجه صمت الرجل المتهم الذي يرفض ان يقول لا او نعم.

كانت القاعة اكثر ازدحاما مما كانت في المرة السابقة، وبدت ديما اكثر طبيعية، ربما لانها تعودت مثلي، على الظروف الجديدة. وقد شهدتها تتحادث مع الصحفيين فتبدو لي من بعيد محامية اكثر من زوجة، تتحدث بهدوء وعبر صوت افقدته عمدا رنة العاطفة لتبدو، فيما تحسب، معقولة.

وفتح المحامي اوراقه ببطء متعمد فيما خيم صمت ثقيل، وقد حدق الي وهو يرفع الصفحة الاولى لفترة طويلة، كانه يرجوني، هذه المرة، ان اتمسك بصمتي الى الابد.

لقد اعلن في نظرته تلك انني خرجت نهائيا من القضية التي تدور حول رأسي، وان الموضوع كله قد اضحى حوارا طريفا حول دجاجة ما، ورهانا مسليا لا يمكن ان يستكمل اثارته الا اذا استكملت صمتي، الى الابد.

لقد تضاءلت الآن، (او تراني ارتفعت؟) من شخص الى تجريد، لدى الاتهام ولدى الدفاع في آن واحد، وكنت سعيدا ان ذلك قد حدث بهذه السرعة بعد ان اعتبرت نفسي، عبر الصمت، تجريدا لا يمكن للعدالة ان تتعامل معه.

انني ارفق دفاع المحامي، ايضا، بهذه الاوراق - كي نستكمل الموضوع من كافة جوانبه.

«انتم تحاكمون الآن رجلا صامتا، لم يقل لا، ولكنه ايضا لم يقل نعم، ومعنى ذلك ان الدفاع عنه مهمة شاقة. ان اثبات براءته مسألة صعبة ولكن ما هو اصعب هو ادانته.

لماذا يصمت المتهم؟

لقد كان تفسير الادعاء بانه صمت لانه لا يستطيع ان يقول شيئا امام الادلة، انه احتمال اقبله بكل احترام شرط ان نقبل الاحتمال الآخر الذي يقول بان الادلة ايضا جاءت صامتة. انها ايها السادة لا تعني شيئا دون ان يقول المتهم كلمته اما الشخص الآخر الذي يستطيع ان يقول كلمة مماثلة فقد مات.

لقد وجد موكلي نفسه، دون تمهيد، في مصيدة من الادلة التي تعني انه القاتل بنفس المقدار الذي تعني فيه انه ليس قاتلا، وامام حيرة من هذا النوع سأسمح لنفسي ان اقول انه اصيب بنوع من الجنون: فهو لا يستطيع ان يصدق، وشاهده الوحيد ليس ميتا فقط ولكنه ايضا صديق عزيز ميت، والمجرم الحقيقي نفذ جريمته بتخطيط شديد الذكاء ليضع انسانا بريئا امامكم على قاب خطوة من الموت، فما الذي يستطيع رجل ان يقوله في هذه الحالة؟

لقد رأينا كثيرا من المتهمين الابرياء يعلنون اضرابا عن الطعام حتى الموت، اي انهم يختارون الموت بأنفسهم قبل ان تجبرهم عليه اخطاء العدالة، ان الصمت هو صراخ من النوع نفسه. اكثر عمقا واكثر لياقة بكرامة الانسان.

الا تستطيعون ايها السادة ان تسمعوا في صمت هذا الرجل صراخ الرجل البريء المغلوب على امره؟ صراخ الضحية التي وضعها مجرم

مجهول في مصيدة دون ان يتيح لها فرصة الدفاع عن نفسها؟ اي برهان على براءة الرجل اكثر قوة من ان يصمت حين تكون حياته نفسها على حافة السكين؟

لو تكلم المتهم فانه لن يفسر شيئا وقد يستطيع ان ينقذ حياته او بعضها ولكن حين يصمت فقد يخسر حياته، فلماذا يصمت اذن اذا لم يكن الصمت هو اعمق دفاع انساني عن الحياة؟

ان مرافعة الادعاء تحتوي على تناقض نظري فاضح: فهو يقول ان موكلي ارتكب جريمة عن سابق تخطيط وتعمد واصرار ثم يقول انه صمت لانه يعترف بها، ولكن لو كان هذا صحيحا لكان من المفروض ان ينبري المتهم للدفاع عن مخططاته. لو قال الادعاء ان موكلي ارتكب جريمة مفاجئة، دون عمد واصرار، لكان بوسعنا ان نفهم بأن صمته هو ندم عميق واعتراف كامل، لان الجريمة اذن حدثت خارج سيطرته العقلية واحس بفداحتها الآن، ولكن اذا كانت الجريمة وليدة خطة طويلة الامد فالذي لا شك فيه اذن ان المتهم كان قد وضع في حسبانه ان يدافع عن نفسه، واعد للامر عدته.

سأسمح لنفسي ايها السادة ان اقول ان جريمة مخططة طويلة الامد لا يمكن ان تترك ادلة بهذه الكثرة، خصوصا اذا كان الرجل الذي قام بها محامياً خبيراً وذكياً. الا اذا وافقنا بان الجريمة قد حدثت في لحظتها، دون تخطيط ودون تعمد واصرار وربما للدفاع عن النفس، ولكن هذا كله غير مثبت، ان الشيء الثابت هو ان الجريمة مخططة بدقة واحكام، وهذا تناقض آخر، تناقض بين وجود ادلة عديدة، وبين ما نعرفه جميعا عن ذكاء موكلي وطول تمرسه بقضايا الجنايات.

ولكن يجب ان لا يخيل لاحد انني اريد ان اقول ان موكلي قد ارتكب الجريمة دون تخطيط ودون سابق اصرار، انني ـ ايها السادة ـ لست هنا لاطالب بالسجن المؤبد لموكلي بدلا من الاعدام ـ انني اطالب له بالبراءة.

لقد قال الادعاء ان اتصالا غير مباشر قد حدث بين موكلي وبين الشاب الارجنتيني قبل وفاة والد الضحية ليلى، ولكنه ليس من الثابت ان موكلي هو الذي قام بهذا الاتصال ـ صحيح ان موكلي اعتمد على هذا الاتصال الاولي غير المباشر حين اضحى محامي الشاب الارجنتيني ولكن ذلك لا يثبت ان موكلي هو الذي اجرى الاتصال الاول.

من الذي اجرى ذلك الاتصال الاول مع الشاب الارجنتيني؟ ان هذه المسألة في غاية الاهمية ذلك انها، لو استطاعت العدالة حلها، تدخل الى القضية الرجل المجهول الذي لعب الدور الاساسي كله، والذي قد يكون ارتكب الجريمة.

ان رجلا مجهولا ما زال خارج نطاق العدالة، ليس ثمة اي اثبات تركه، ولكنه موجود، وليس بوسعنا ان نمضي في هذه القضية الى نهايتها دون ان نعرف من هو.

لنعد الى القصة الاولى من اولها.

كان والد ليلى الحايك على وشك الموت، مخلفا ثروة طائلة لابنته الوحيدة، حين تلقى الشاب الارجنتيني كما قال في اعترافاته رسالة مغفلة التوقيع، مركبة من كلمات مطبوعة مأخوذة من جريدة ما، تفتح عينيه على موضوع الارث.

من الذي ارسل له هذه الرسالة؟ الادعاء يوحي بان موكلي هو الذي فعل، ولكن هذه الواقعة ليست مثبتة قانونيا، وقد لعبت عند الادعاء دور المدماك الاساسي الذي ركب عليه قصة الجريمة برمتها. . . لقد علم موكلي بالقضية من رسالة مماثلة وصلت الى السيد الحايك.

ليست مهمتي اكتشاف ذلك الرجل، ولكن القانون يعطيني حق افتراض وجوده، وسأبني القصة، في ظروفها التي تعرفونها جيدا، على افتراض وجود ذلك الرجل.

ليس بوسعي، وليس بوسع الادعاء ايضا، معرفة الطريقة التي تم الاتصال بها بين موكلي والشاب الارجنتيني، ولكن لدينا حقيقة واحدة في هذا المضمار وهي ان موكلي اتصل بالشاب الارجنتيني بعد تعرفه الى عائلة الحايك وليس قبل ذلك.

من اقوال الشهود لدينا اثبات آخر وهو ان سعيد الحايك هو الذي طلب من موكلي موعدا وليس العكس، هذا يعني ان موكلي لم يكن على علم بتلك القضية - بل اكثر من ذلك فقد قال سعيد الحايك انه هو الذي اطلع موكلي على وجود قضية من هذا النوع وانه طلب منه توليها كخصم لانه يثق بشهامته وتقيده بالقانون قبل ان يتولاها محام آخر يدخلها الى عالم من المساومة والضغط وربما التزوير.

كيف عرف سعيد الحايك تفاصيل القصة؟

لقد اشار سعيد الحايك في التحقيق الى رسالة مماثلة لتلك التي وصلت للشاب الارجنتيني، وقد جعل السيد الحايك موكلي يطلع على تلك الرسالة الغامضة، كخصمين شريفين ليس لديهما ما يخفيانه.

نحن ايها السادة امام مجرم حقيقي، شديد الذكاء، واخشى ان يكون قد ضللنا جميعا، لقد اتصل بالوريث المزعوم واتصل بعائلة الحايك وانتظر من الاتصالين ان يفرضا محاميا، ليتيسر له ان يلعب لعبته في الوقت المناسب.

لدينا سؤالان الآن ايها السادة: هل كان ذلك الوريث الارجنتيني مزعوما حقا؟ ولماذا اتصل الشخص المجهول بهذه الطريقة بسعيد الحايك وخصمه وادخل المسألة الى القضاء؟ ما هي مصلحته في ذلك؟

ليس لدى موكلي، حتى لحظة وقوع الجريمة البشعة، ما يثبت ان الوريث الارجنتيني هو وريث مزور، وبوسع اي منا ان يتصور نفسه في مكان موكلي: قضية ارث معقدة، فيها احتمالات متساوية ولكن فيها ايضا الاغراء الذي يمكن ان يجلبه الانتصار، حصة قانونية من الثروة.. فما هو المانع من ان يتولى موكلي القضية طالما هي في نطاق القانون؟

صحيح ان الشاب الارجنتيني لم يستطع ان يثبت نسبه الى والد ليلى، ولكن الصحيح ايضا ان ليلى لم تستطع ان تثبت العكس.. ان الوثيقة الوحيدة القادرة على ان تحسم الاحتمالين لمصلحة ليلى لم تبرز الا بعد مقتل الضحية، وكما قال الشهود فان موكلي لم يكن على معرفة بها وبحقيقتها حتى حين اعلمته الضحية بوجودها.

اذن، من الناحية المنطقية، ليس لدى موكلي اي مانع من ان يأخذ القضية وعلى العكس فقد اخذها بناء على نصح خصمه، لان خصمه هذا كان يثق بنزاهة موكلي وحرصه على القانون.

ولكن من اين جاءت تلك الوثيقة الوحيدة، والتي لم تكشف الا بعد

وقوع الجريمة؟

انه سؤال مهم ايها السادة، في غاية الاهمية بالرغم من ان كل الشهود لا يعرفون قصتها. . انني اجرؤ على القول بان جهل جميع الشهود بتلك الوثيقة هو اثبات لا يدحضه الشك بوجود رجل مجهول».

وسرت فجأة ضجة في قاعة المحكمة فاخذ القاضي يضرب المنضدة بكفه طالبا الهدوء، وصاح صوت قريب لم استطع تبين صاحبه «انت تزيد الموضوع تعقيدا».

ولكن المحامي الشائب اخذ يهز اوراقه مستثارا، طالبا من القاضي ان يهيء له فرصة اكمال مرافعته بهدوء، وبدت وجوه الحاضرين، حين نظرت اليه، مملوءة مرة اخرى بالحيرة التي كانت عليها قبل مرافعة الاتهام.

وكان المدعي العام يهز رأسه ساخرا ولكن بصمت، وفجأة نظر المحامي الي وكأنه يستشيرني فالتزمت الصمت. . ولكنه بدا لي في تلك اللحظة اكثر ذكاء ودهاء مما توقعت، يجيد هو الآخر استعمال المواد الخام ليبني هيكله الخاص دون ان يرتكب مغامرة غير مأمونة العواقب.

واعترف انني انا نفسي لم اكن لافكر بمثل هذا المخرج، لقد كان وضع نغمة «الرجل المجهول» في الدفاع وسيلة بارعة لتحميله كل التفاصيل التي ظلت غامضة، وفي هذه الحالة فان المحامي لا يخسر شيئا وليس اسهل عليه من تأليب القضاء على رجل ما زال فارا بعد ان قام بخديعة رهيبة.

لقد كان المحامي بارعا في استغلال نقطة حساسة في القضية هي

صمتي، وكان صمتي يثقل ضمير المحكمة وقد جاء المحامي ليتيح لها مخرجا لائقا عن طريق القاء التبعة على اكتاف رجل هارب.

ولكن القاضي لم يكن قد استطاع ـ بعد ـ اسكات الضجيج، وكان المحامي الشائب ما زال يلوح باوراقه مطالبا باتاحة الفرصة له ليكمل مرافعته وكانت زوجتي وسعيد الحايك يهزان رأسيهما للمحامي مشجعين في تعابير بدت وكأنها تتمسك بما تبقى في اوراقه من امل.

وفجأة ضرب المحامي منضدته بجماع كفه فاحدثت دويا هائلا اعقبه صمت مطبق، وانطلق صوته الراجف وسط ذلك الصمت يصيح:

ـ نعم، ايها السادة.. سترون ـ لو تكرمتم اعطائي فرصة اكمال دفاعي ـ ان هناك رجلا مجهولا قام بارتكاب هذه الجريمة البشعة ويريد الصاقها بموكلي.

وهز اوراقه في وجه الحاضرين:

ـ ان سراح موكلي ينبغي ان يطلق فورا.. ولدي هنا الاثبات.

وصاح صوت في الصف الخلفي:

ـ انه منطقي.. دعوه يكمل فقد ينقذ الرجل.

ومرة اخرى طلب القاضي من صاحب التعليق ان يغادر القاعة ومرة اخرى شهدت الرجل العجوز الضئيل يخرج بهدوء وكأنه جاء فقط ليقول هذه الكلمة.

ووسط الصمت المستثار الذي خيم بعمق ثقيل على القاعة مضى

المحامي الشائب في محاولته البارعة لابعاد حبل المشنقة عن عنقي . .

وكنت اعرف، في شعور غامض، ان القنبلة التي رماها المحامي العجوز في قاعة المحكمة، حين تحدى الاتهام بوجود رجل مجهول وراء الجريمة، هي قنبلة لا تحتمل الفحص. وان الضجة التي احدثتها بين الحضور كان سببها الاساسي انهم لم يستمعوا لتتمة المرافعة.

وكنت ارى - بيني وبين نفسي - انه لو طوى المحامي اوراقه عند تلك النقطة ومضى لكان ترك في القاعة اثرا ابعد واعمق واكثر تشويشا من ذلك الذي سيتركه بعد انتهاء المرافعة . .

وعلى اي حال فقد كنت اعرف ايضا انني لا استطيع تقدير حقيقة كفاءة ذلك المحامي الذي فاجأني بمدخل لم اكن اتوقعه . . . وحين قمت بحسابي الخاص رأيت ان ذلك المحامي، لو كان اكثر كفاءة مما هو، لاستطاع ان يحوك قصة بارعة قد تنطلي ان ليس على المحكمة فعلى الرأي العام:

ماذا اقصد بكلمة كفاءة؟

اقصد انه لو استطاع، مثلاً، اقناع الشهود باسقاط جمل لا يعتبرونها مهمة في شهاداتهم لجاءت قصته محبوكة تماما.

ولكنني كنت اعرف ان ذلك شيء لا يستطيعه لانه يحتاج الى درجة في الذكاء والتصور هي عادة من اسلحة العقل الشاب المغامر وليست من مؤهلات العقل العجوز.

لقد عاد المحامي يقرأ بهدوء، صار الآن اكثر ثقة بنفسه واشد تماسكا، وقد رمقني بنظرة خاطفة يوحي بانه لم يعد - بعد - بحاجة الى

معونتي.

بدأ فكرر قراءة صفحته كي يعيد وصل الموضوع بدقة ويجعله اكثر تأثيرا..

وانتهى بلهجة عنيفة الى التأكيد الذي سبب مقاطعته قبل دقائق:

.. «من اين جاءت تلك الوثيقة الوحيدة التي لم تكشف الا بعد وقوع الجريمة؟ انه سؤال مهم ايها السادة.. في غاية الاهمية بالرغم من ان الشهود لا يعرفون قصتها. انني اجرؤ على القول بان جهل جميع الشهود بتلك الوثيقة هو اثبات لا يدحضه الشك بوجود رجل مجهول..

من هو هذا الرجل؟

نحن الآن في طريقنا لاكتشاف جواب السؤال الذي طرحناه قبل قليل: لماذا اختار الرجل المجهول ان يدفع القضية الى المحاكم بتلك الوسيلة الخبيثة؟

ايها السادة، لقد اختار ذلك ليجد الوقت المناسب كي يطرح الوثيقة التي يملكها للبيع، والقضية في ذروتها.

لقد كان من الممكن ان تكون الوثيقة الآن في يد الشاب الارجنتيني لو ان اتصالات الشخص المجهول بليلى قد اتخذت مجرى آخر. وكان الشاب، على الاقل كما يفترض ذلك الرجل المجهول، مستعدا لشراء الوثيقة الوحيدة التي يمكن ان تحول بينه وبين الارث، ولكن المجهول اتصل بليلى لانه افترض انه يستطيع ان يبيعها الوثيقة بسعر اغلى.

ان الشاب الارجنتيني فوجىء بالقصة كلها، وقد اعترف بذلك: كانت الثروة بالنسبة له مصادفة تهبط من السماء ولذلك قبل بحصة

صغيرة اما المحامي فان مهمته، كما تعلمون، اكبر من ذلك واكثر التصاقا بالعدالة.

صحيح ان موكلي طلب للشاب الارجنتيني ثلثي الارث، دون ان يكون الشاب نفسه قد طلب ذلك، ولكن لماذا ينسى الاتهام ان موكلي كان قد منح السيدة الحايك وعدا بعدم المساومة، وقد اكتشف حين جاءته مع زوجها لتساوم انها واقعة تحت ضغط الزوج، وكان موكلي يريد الالتزام بوعده فوجد المخرج في ان يطلب لموكله ثلثي الارث ليصرف نظر الزوج نهائيا عن التفكير بالمساومة؟

ان هذا القول مجرد افتراض، وانا اميل لأكون اكثر واقعية من الاتهام في هذا الصدد فأقول اننا كيفما قلبنا الامر فاننا سنرى ان موكلي لم يكن يلعب على الحبلين كما قال الاتهام.

اننا نسقط هنا امام اعينكم قصة سمعتموها من الادعاء تقول ان موكلي كان يلعب لعبة غير قانونية، ونسقط معها افتراضا اعتمد عليه الادعاء يقول ان موكلي كان يضغط للخروج بحصة كبيرة لنفسه من تلك الثروة. ان كل الذي اراده موكلي هو ان يتابع القضية قانونيا، وهو لم يطالب بالثلثين لموكله حين جاءته عائلة الحايك للمساومة الا لان تلك المساومة اقنعته بان فرصته لكسب الدعوى متوفرة ما تزال، وهذا الطلب لم يكن خروجاً عن وعد الشرف الذي كان قد أعطاه للضحية لانه لم يطالب بالثلثين بديلاً عن القانون، ولانه، من ناحية اخرى، مرتبط ايضا بوعد شرف آخر، واكثر قيمة، امام مهنته وموكله.

ان التحقيقات وشهادات الاطراف المختلفة تعطينا الموقف التالي:

كانت الضحية واثقة من ربح الدعوى ولذلك كانت غير راغبة في المساومة، وكان زوج الضحية السيد الحايك اقل ثقة لانه اكثر شكا وكان ميالا للمساومة اما موكلي فقد كان رجل قانون، لا يتعامل بالطبيعة مع الظنون، وكان يترك للعدالة ان تقرر كل شيء، مانحاً موكله وخصمه، في نبل نادر، وعد شرف بان يكون ملتزما بالقانون وبارادة العدالة.

بناء على هذا الموقف نستطيع ان نفهم ان السيد الحايك قد استطاع اقناع زوجته اخيرا ببذل محاولة للمساومة خصوصا وانها قررت التبرع بالمبلغ كله لعمل خيري، وقد جاءا لزيارة موكلي بهذا الشأن ولكن الصفقة لم تتم، وبدت الضحية كما قال الشهود مصرة على ان تأخذ القضية مجراها الطبيعي، وكذلك موكلي - اما السيد الحايك فقد اراد ان يبذل محاولة اخرى مباشرة مع الخصم.

نحن نعلم ايها السادة ان الضحية اتصلت بموكلي المرة الاولى كي تقنعه بأن لا يشجع زوجها على اجراء اية مساومة، وأن موكلي منحها وعد شرف بذلك، فلماذا لا نعتقد انه اتصل بها في اليوم الذي وقعت فيه الجريمة ليسألها عن رأيها الآن، وقد ذهب زوجها ليجري اتصالا مباشرا مع الخصم؟

انتم ترون ايها السادة الآن ان مثل ذلك الاتصال كان واجبا، فقد توقع ان يتصل به موكله ليسأله رأيه، ولذلك كان لا بد له من معرفة طبيعة الموقف الجديد للسيدة الحايك التي كان قد منحها وعدا بعدم قبول اي تسوية من هذا النوع.

وليس بوسع أي منا ان يعرف ما الذي قيل في تلك المخابرة، اثنان يعرفان ذلك فقط: واحد صامت والآخر ميت.

اما الذي نعرفه ايها السادة فهو ما يلي:

ان القضية الآن لم تخرج من يد موكلي، كما قال الادعاء ولكنها خرجت من يد الشخص المجهول، الذي لا يعرفه اي واحد منا.

ان موكلي حتى تلك اللحظة لم يخسر شيئا، في الحقيقة انه لا يملك ان يخسر او ان يربح ـ الشخص الآخر هو الذي كان يخسر، الشخص المجهول الذي بدأ تلك القضية ثم احس بأنها خرجت من سيطرته.

شخص آخر، بالاضافة لهذا المجهول، كان يخسر ايضاً. ذلك هو السيدة ليلى الحايك، التي كانت ترفض اية مساومة مع الوريث المزعوم.

سعيد الحايك لم يكن خاسراً بالطبع، موكلي لم يكن خاسراً أيضا، الشاب الارجنتيني لم يكن خاسراً: فقط السيدة الحايك التي كانت تشعر بأنها ستدفع مبلغاً لشاب لا تعرفه اساء الى ذكرى والدها، ثم ذلك المجهول الذي كان يشعر بأن الصفقة قد خرجت من يديه، كوسيط.

فلماذا لا يبذل ذلك المجهول محاولة أخيرة؟

لماذا لا يتصل بنفسه هذه المرة بالسيدة الحايك فيقول لها انه يستطيع ان ينهي تلك القضية بوثيقة واحدة اذا منعت زوجها من اعطاءالعشر للوريث المزعوم واعطته له بدلا ذلك؟

لنقل، افتراضا، انه اتصل بليلى وحدثها بشأن الوثيقة ولكنه طالبها بأن لا تبوح بها، وقد اشارت ليلى الى الموضوع لزوجها ولكن

بثقة قليلة: فهي لا تعرف حقيقة تلك الوثيقة ولا تملكها بعد، وهذا ما يفسر انها رفضت اعطاءها لزوجها او لموكلي او الدخول في التفاصيل بشأنها معهما. وهي من ناحية اخرى لا تعرف كيف سترسو الصفقة مع الشاب الارجنتيني لتساوم المجهول على اساسها، وكان زوجها ـ كما قال بنفسه ـ مصرا على المساومة فتركته يفعل واثقة بانها ستكون، في نهاية المطاف في جانب الانتصار.

لسنا نعرف ما الذي قيل في تلك المخابرة الموجزة التي حدثت بين الضحية وموكلي ظهر اليوم التي وقعت فيه الجريمة، ولكننا نستطيع ان نستنتج بناء على وقائع حدثت فيما بعد، انها طلبت منه مقابلتها في بيتها في السابعة من ذلك المساء.

لماذا في السابعة وهي التي تعرف ان موكلي يغلق مكتبه في السادسة؟ انه سؤال مهم ايها السادة، ففي السادسة كان موعدها مع الرجل المجهول، وكانت تريد ان تستشير موكلي بعد مقابلة الرجل المجهول لتكون على بينة، ولكنها لم تقل ذلك لموكلي، كما يبدو، لانها لم تكن مطمئنة بعد الى حقيقة تلك الوثيقة ولا الى صدق الرجل المجهول ومرتبطة بوعدها له بعدم الحديث.

لقد اغلق موكلي مكتبه، وضيع وقتا في التجوال ريثما يحين موعد مع الضحية، فليس من المنطق في هذه الحالة ان يذهب الى بيته الذي يقع في الطرف الآخر من البلدة ـ ويبدو انه تذكر بان الاستعانة ببعض الاوراق قد تصبح ضرورية فعاد الى مكتبه حين فاجأه البواب يضع «شيئا متطاولا» في جيبه، ولم يكن هذا الشيء الا الاوراق التي لا بد لمحام ما ان يصطحبها معه الى لقاء يتعلق بالعمل.

ليس من المعقول ان يكون موكلي، في تلك الفترة التي وقعت بين السادسة والسادسة والنصف من يوم الجريمة، قد ذهب الى بيت الضحية ـ ليس لدينا اي اثبات على ذلك، والبواب يقول انه لم يره، واذا كنا نعتقد ان موكلي قد غافله، فانه من الصعب ان نصدق بانه نجح في ذلك اربع مرات متوالية في ظرف نصف ساعة، خصوصا وان البواب لم يغادر المكان كما قال الا لفترة قصيرة.

لقد وصل موكلي الى بيت الضحية في موعده، ولكنه لم يجد أحدا ـ وقد اراد كما يبدو ان يعرف فيما اذا كانت الضحية في البيت، كي يواصل محاولته، ام خارجه كي ينتظر وليس ثمة الا طريقة واحدة لمعرفة ذلك: المفتاح، وفيما كان يحاول تحسيس مكان المفتاح اسقط علبة سجائره. لم يجد موكلي المفتاح في مكانه فعرف ان السيدة ليلى في الداخل، وانها لسبب من الاسباب لا تريد ملاقاته، او انها نائمة ـ ولم يكن الامر يعنيه كثيرا فغادر المنزل، ولكنه اكتشف انه ضيع علبة لفافاته فعاد، وكما يحدث مع اي انسان آخر يقابل انسانا في المصعد وهو في طريقه لزيارة امرأة ذات زوج مسافر يشعر بانه قد يحرجها امام جيرانها فعاد ادراجه.

لو كان موكلي قد ضيع علبة لفافته في مسرح جريمة قتل لما تردد في بذل محاولة لايجادها، فهي البرهان الاوحد في هذه الحالة وبالوسع اخفاؤه، ولكن حين كان الامر كله يتعلق بعلبة لفافات شبه فارغة فان العودة الى باب منزل امرأة وحيدة امام اعين جيرانها، عمل لا يستحق الاصرار.

الان، ما الذي حصل بين السادسة والسادسة والنصف؟

لقد جاء ذلك الرجل المجهول ليساوم ليلى، وابرز لها الوثيقة

الحاسمة ولكن يبدو ان الاتفاق لم يحدث، وليس يعرف احد ـ الا الضحية والرجل المجهول ـ لماذا قامت الى الهاتف: ربما لتستدعي الشرطة، ربما لتستعجل موكلي، ولكن الجريمة حدثت تلك اللحظة بالذات، فيما كانت الضحية بين الهاتف والمقعد ـ كان المجرم المجهول يفترض كما يبدو انه يستطيع الان تأمين الارث للشاب الارجنتيني وحده، وبالتالي فان حصته ستضحي اكبر وقد كان لا بد من تلك الجريمة لان امره كان على وشك الافتضاح ايضا.

اني لا ادعي انني اعرف دوافعه كاملة، فذلك من شأن تحقيق آخر تقوم به المحكمة ـ ولكنني لا ارى بالنسبة لرجل قدير مثله مانعا من ارتكاب هذه الجريمة، نهاية منطقية وعقلية لما بدأه.

لقد أثبت التحقيق ان القاتل كان يلبس قفازين، فلماذا لم يلبسهما موكلي، اذا كان هو القاتل، حين فتش عن المفتاح؟

ان الرجل الذي يلبس قفازين ليرتكب جريمة لا يترك ايها السادة بصمات اصابعه على حافة باب مغبر، ولا يعرض نفسه امام ثلاثة شهود على باب المصعد، ولا يسقط علبة سجائره حين يغادر المسرح ثم لا يعود ليأخذها.

وأنا اعرف ان الادعاء سيتحدث عن رزمة القاها موكلي في البحر، ولكنني اعتقد انه لا يعرف عنها شيئا هو الآخر بقدر ما اعرف انا ـ ان قذف رزمة ما، مجهولة، في البحر ليست دليلا على اي شيء، والعدالة لا تستطيع ان تشنق رجلا لانه القى رزمة في مياه البحر.

ليس ثمة سبب ليرتكب موكلي جريمة من هذا النوع، ان جميع

الشهود اتفقوا على ان ذلك الاتهام شيء بعيد الاحتمال، وقد رأينا ها هنا انعدام الحافز ايضا. . وبنفس القوة استطيع ان اقول انني لا اعرف احدا يهمه ارتكاب هذه الجريمة الا ذلك الشخص المجهول.

لقد وجه ذلك المجهول الذي نجح حتى الآن في تجنيب العدالة طعنة محكمة واحدة الى خاصرة الضحية فيما كانت توليه ظهرها، وامعانا في اخفاء جريمته والتمويه على حقيقتها قام باستلاب بعض المجوهرات، ولكنه في غمار اضطرابه لم يعثر على الوثيقة الحاسمة، التي وجدها التحقيق مدفونة في خزانة الكتب القريبة.

كيف وصلت الوثيقة الى هناك؟ هل يعقل ان تضع امرأة ما وثيقة هامة كهذه كانت في حوزتها منذ زمن بين كتب زوجها؟ لا يعقل، وقد وجدت الوثيقة هناك لسبب بسيط هو ان الضحية غافلت الشخص المجهول الذي كان هناك وخبأتها في اقرب مكان، او كانت قد اشترتها منه ودفعت ثمنها مجوهراتها بناء على اصراره ثم غافلها وقام يطعنها لسبب لا نستطيع ان نكتشفه الان.

ان كثيرا من الاحتمالات يمكن ان ترد هنا، وذلك لسبب بسيط وهو ان المجرم الحقيقي ليس هنا: هل اعطاها المجرم الوثيقة قبل تلك الجلسة في اليوم المشؤوم ثم اختلف معها وانتهى الخلاف بالجريمة؟ هل قتلها في محاولة لاسترداد الوثيقة ثم فوجىء بجرس الباب وبيد تبحث عن المفتاح فاركن الى الفرار او الاختباء بشكل ما؟ هل كانت الوثيقة حقا في حوزة الضحية قبيل الجريمة؟ هل هي الوثيقة التي تستطيع ان تحسم القضية ام ثمة وثيقة اخرى جعلت امر فقدان الوثيقة الاولى ثانوياً؟ هل كان المجرم قريبا من العائلة الى حد الاطلاع على تفاصيل

ثانوية ام انه كان على معرفة بماضي الاب؟

ان هذه الاسئلة، وكثيرا جدا غيرها، ينبغي ان نجد اجوبتها، اين؟ هذا هو السؤال المهم.

ايها السادة، يوجد رجل اخر، او اكثر وراء هذه الجريمة المروعة، رجل استطاع تضليلنا جميعا وليس قتل امرأة فاضلة بريئة فقط ولكن محاولة قتل رجل بارع بريء ايضا، وكي لا نسمح لذلك بالحدوث فان علينا بدء التحقيق من جديد واطلاق سراح موكلي فورا».

***

لقد قوبلت تلك المرافعة بالصمت والذهول، واكتشف كثير من الحضور كما يبدو ان المسألة اكثر تعقيدا مما حسبوا، وكان الادعاء، طوال الوقت، يهز رأسه مستنكرا اما القاضي فقد نجح في ان يجعل وجهه جامدا تماما، مكتفيا بتسجيل ملاحظة بين الفينة والاخرى.

وفورا بدأ استجواب الشهود مرة اخرى، الا ان الدفاع والاتهام معا لم يستطيعا ان يضيفا شيئا جديدا نتيجة لاسئلتهما المعقدة، لقد عاد كل شاهد فكرر بالضبط ما كان قاله في الاستجواب السابق، ويبدو ان شعورا ما قد سيطر على الجميع بان القضية كانت تمر في تلك اللحظة بمرحلة دقيقة من التوازن، وان كلمة اضافية واحدة قد ترجح كفة ما، فيذهب رأسي ثمنا، او كفة اخرى فيطلق سراحي فورا. ولم يكن اي من الشهود راغبا في تحمل مسؤولية اي من الاحتمالين.

وبدت القضية كلها ـ تلك اللحظة ـ امام لحظة حاسمة..

ورغم ارادتي اخذ قلبي يخفق بعنف حتى كدت اسمع دقاته في السكون المتوتر...

واخذ قلبي يخفق بعنف حتى كدت اسمع صوته يدوي وسط السكون المطبق الذي كان مخيما على الجميع. .

وبدا لي تلك اللحظة بالذات ان قصة المحامي العجوز المختلقة، قد تكون حقيقية، بل انني مضيت ـ في الدوار الذي اصابني والذي كنت اجهل حتى الان حقيقة دوافعه ـ مضيت اتصور القاضي يقوم عن مقعده فيربت على كتفي وعيناه مغرورقتان بالدموع. . . ويقول لي: امض الى بيتك ايها المسكين. . . فأنت بريء.

حتى تلك اللحظة لم اكن اعلم ابدا حقيقة الدوافع وراء هذه الافكار الساذجة، كانت شيئا آخر يختلف تماما عما حسبته في البدء.

كنت احسب ـ وانا خاضع للجو الذي خيم بعد مرافعة المحامي ـ ان المسألة كلها هي مباراة في البراعة وان براءتي تتوقف على ان يكون محامي ابرع من الاتهام بغض النظر عن الحقيقة. . وان الذي يستطيع ـ بين الاثنين ـ اختلاق القصة الاكثر اقناعا لا القصة الاكثر «واقعية» هو الذي يفوز برأسي: فاما ان يرسله الى البيت او يرسله الى المشنقة.

القصة الاكثر واقعية؟

ما هو الواقع ايها السادة؟ انه ـ في اعتباركم ـ المعقول والمنطقي. . ولكن كم من الاحداث الواقعية بين معقول ومنطقي؟ ما هي العلاقة بين الواقع والمعقول؟ هل الحرب، مثلا، واقعية ام معقولة؟ اترون؟ اننا نلعب على بعضنا، اننا نزور العالم كي نفهمه. يا للتعاسة.

دعوني اقف قليلا، واعدكم بأن اعود الى الموضوع انني اتذكر الآن حادثة مهمة هي صورة مصغرة عن قصتي معكم، ساسمح لنفسي ان

استعملها هنا استشهادا لما ارى.

حين كنت مراهقا كانت خادمتنا صبية بشعة.. اذكرها الآن بوضوح وكأنها تجلس معي في هذه الزنزانة: كانت شديدة السمرة، مجدورة الوجه، ذات شعر مجعلك كالاسلاك، واسنان بارزة صفراء.. ولكنها كانت - كأنما لتعوض ذلك كله - ذات جسد مثير.

كانت قادمة من الريف، ويبدو انها لم تطق ابدا يومذاك فكرة ان تحبس ثدييها الكبيرين في صدارة ولذلك تركتهما تحت ثوبها الرقيق يرجان كلما انتفضت او تحركت.. وكنت اضع عيني عليهما والتهب في سني الغضة حتى لاحس النار تأكل وجهي من الداخل.. ولكن وجهها البشع كان يقف دائماً مثل الحارس الشرس لذلك الجسد المثير: يخيفني، ويسحق اشواقي الصغيرة بوحشية.

وحدث ذات يوم ان جئت من المدرسة مبكرا ففتحت لي الباب.. كانت تمسح البلاط في غرفة الجلوس حيث اعتدت ان اجلس بعد وصولي من المدرسة، كان ثوبها الرقيق ذا قبة واسعة وحين مضت ببراءة تمسح البلاط راكعة على ركبتيها شاهدت صدرها العاري يرتج مع حركتها.

كان رأسها محنيا فلم ار وجهها، كنت ارى صدرها فقط وردفيها وجسدها المثير ينتفض - كما لم ار جسدا في حياتي - تحت ثوبها الرقيق.

كانت النوافذ مفتوحة على وسعها والشمس تصب في الغرفة كل حرارتها.. وشعرت بدوار لا يقاوم ولست ادري كيف وقفت واندفعت نحوها دون تفكير. وكأن قوة غامضة في اعماقي كانت تحسب بدقة لا

مثيل لها كل التفاصيل : كانت اصغر مني حجما فاوقفتها ممسكا بذراعيها دون ان انظر الى وجهها ، ودفعتها نحو جزيرة الضوء المربعة التي كان ضوء الشمس القادم من النافذة يفرشها على البلاط المبلول . . كانت قبة ثوبها واسعة فانزلتها بهدوء حول كتفيها فانهمر الرداء كله دفعة واحدة .

في تلك اللحظة فقط تصدت للمقاومة الا انني القيتها على البلاط المبلول مزودا بقوة غريبة . . لست ادري من الذي كان يرتب الحساب في رأسي ، دونما ارادة مني ، الا انه كان حسابا دقيقا ، مذهلا في وقته . . فحين قذفت نفسي فوقها جاء ضوء الشمس مباشرة في عيني فلم اعد ارى شيئا .

انا متأكد الآن انه لو لم تصب الشمس ضوءها في عيني ، ورأيت وجهها لما تم الامر . . لما كان لاية قوة في هذا العالم ان تتمه . . ولكن حين عشي بصري انفتحت عوالم اخرى امامي . . . عوالم من كل صور النساء العاريات التي رأيتها في حياتي . . وكان الجسد المثير وهو يضج بالمقاومة الاكثر اثارة اروع امرأة ضمتها ذراعاي في عمري كله !

وقد اقتحمتها ، تلك المرأة المسكينة . . فوق الارض المبتلة ، امام الشبابيك المفتوحة ، وسط توقع مثير بان ينفتح الباب في اية لحظة وتدخل أمي أو يدخل ابي . . او ينفتح أي شباك في مواجهة بيتنا ويطل منه رأس يرانا ـ في ذلك الوضع الرهيب ـ امامه مباشرة .

وفجأة استسلمت ، ومكنني استسلامها من امتلاكها بهدوء . . كانت أول امرأة في حياتي واروعهن على الاطلاق . . وحين اهتززنا تحت جلد لذة غريبة لم اكن اعرف مذاقها بدأت تنشج كالمسعورة . . وتلك اللحظة فقط رأيت وجهها بعد ان تجنبت عيناي ضوء الشمس ، وهالني

مافعلت واثار في عروقي أنهارا من الاشمئزاز . . .لقد بدا لي تلك اللحظة كأنني انام مع جسد لأمرأة مقطوعة الرأس جيء لها برأس بشع مستعار، وقد جعلها البكاء الذي كان مزيجا من اللذة والخوف والشعور بالذنب والعجز والاسى اكثر بشاعة وتناقضا . .

ولم استطع ان اسحب نفسي بهدوء . . لقد شعرت بأنني كنت مجرما وضحية في وقت واحد، كاسبا وخاسرا، منتصرا ومهزوما . . وتفاعلت هذه المشاعر المريرة في جسدي تفاعلا حارقا فانهلت على وجهها بكلتا يدي اصفعها دونما رحمة.

وفي غمار ذهولها مضيت الى غرفتي، مستشعرا في حلقي طعم القيء، وعلى شفتي وخز اثار الجدري في وجهها البشع.

وانتظرت الى اليوم التالي، هادئا . . حين استدعاني والدي الى غرفته وكانت امي هناك، وكانت الخادمة واقفة ايضا.

القضاء . . ايها السادة . . مصغرا قليلا!

لقد القى والدي الاتهام بقسوة وايجاز وهزت امي رأسها تعسة وعيناها ممتلئتان بالدموع فيما ظلت الخادمة صامتة وهي تقف في الزاوية مستشعرة الذل حتى اعماقها.

ولكنني احتفظت بالهدوء

وحين انهى والدي اتهامه بدأ مع امي ينظران الي، بانتظار الدفاع.
وبهدوء عدت فرويت قصة والدي - كما رواها امامي - مشددا على الكلمات:

- اذن . . اغتصبت انا هذه الفتاة (وحرصت ان اشير اليها باحتقار ملفتا النظر الى بشاعة وجهها) اريد ان اعرف متى واين . .

وروت الخادمة وهي تبكي التفاصيل الحقيقية لما حدث، وحين انتهت سألني والدي بقسوة ان اقول فيما اذا كان ما قالته البنت حقيقة.

وبلؤم سألته:

- انا الذي اريد ان اسألك هذا السؤال.. أنا حزين انني اقف هنا أمامك أنت بالذات لاواجه هذا الاتهام السخيف.. اذن لقد اغتصبت أنا هذه الفتاة (مشدداً على كلمة «انا» لاشير الى اصالة نسبي ونبلي وثقافتي ومستواي الاجتماعي، وعلى كلمة «هذه» لاشير الى بشاعتها المرعبة) في عز الظهر، على الأرض المبلولة، امام الشبابيك المفتوحة، وراء الباب الذي كان يمكن ان ينفتح في أية لحظة.. لم يتمزق رداءها، ولا هي قاومت، ولا الجيران شاهدوني، ولا انتما جئتما...

وقبل ان أكمل لمحت في عيني والدتي ارتياحاً، وعرفت انني ربحت القضية: فقصة الخادمة ليست معقولة ولا منطقية رغم انها حقيقية، اما قصتي فمعقولة ومنطقية ورغم ذلك ليست حقيقية!

واكملت:

- ثم ليس ذلك فقط.. بل انني ضربتها.. اسمعي يا هذه: هل ضربتك قبل الحادث ام بعده ام حين كنت ما زلت...

وقاطعني والدي صائحا:

- اسكت يا قليل الادب!

اذن بات الآن لا يسمح بأن تقال الكلمة بعد ان كان قبل لحظة يحسب ان الفعل ذاته قد تم!

الا ان المسكينة سارعت الى الجواب:

- ضربتني حين كنت ما تزال فوقي!

وقامت القيامة، واعلنت براءتي.. وطردت البنت!

لقد ربحت الدعوى لانني لعبت - بصورة مصغرة - لعبتكم: كان المنطق معي، وكذلك الواقعية... ولكن الحقيقة - لو علم والدي وعلمتم - كانت غير ذلك!

اترون؟

انني لا اؤمن بانني اتلقى الان عقابي على ذلك الحادث.. كلا.. حياتنا ليست مرتبة على هذه الصورة: لقد برأت ضميري حين دأبت على مساعدة الفتاة حتى تزوجت وقد كنت دائماً على علاقة جيدة معها.. وحين رزقت بابن مضيت اصرف له مساعدة شهرية صامتة.. .

***

قلت - لاعود الى موضوعنا - انني حسبت ان براءتي اضحت على مرمى حجر، ولكني كنت واهما.

كانت الحقيقة وراء مشاعري المغلوطة هي ان القصة الحقيقية التي حدثت باتت غير مهمة، واننا كنا ندخل في عالم شفاف، مزيف، كان لا يعني اي واحد منا.

وحين ذهبت الى زنزانتي صفا ذهني من جديد.

واستعرضت المسألة بدقة.

وادركت ان مرافعة الدفاع تحتوي على سلسلة من الاخطاء المهلكة.

وفي الوقت الذي كنت متأكدا فيه ان الاتهام سيكشف تلك الاخطاء واحدة بعد الاخرى فقد كنت واثقا انه، بالرغم من ذلك، فسيظل منطق الادعاء مهزوزا امام بضعة نقاط اخرى لا سبيل الى دحضها او كشفها، اجاد الدفاع استعمالها الى ابعد مدى يستطيعه.

وكنت قد نجحت في ان اضع نفسي خارج الموضوع واراقبه عن بعد فحسب، كما كان يفعل الجميع تقريبا ،تسألونني الم تكن حياتي تهمني على الاطلاق؟ بلى من منا لا يهتم بذلك؟ ولكن الامر كما حاولت ان اقول في هذه الاوراق كلها اكثر تعقيدا من ان يؤخذ بمثل هذه البساطة.

انني مطوق بصورة تستعصي على الافلات، قد تكون هذه الحقيقة هي الكبرى في تحديد مشاعري الان، ولكن ثمة حقائق اخرى تتراكب وتكون ما هو اكبر من تلك الواقعة القانونية.

انتم حين تعزلون السجين عن العلاقات البشرية، عن الحب، عن العمل انما تساعدونه على اجراء تقويم خاص وجديد للحياة ذاتها، ما هي الحياة ايها السادة، اذا كانت تجري في معزل عن ذلك كله؟ قد تقولون انها تعني، حينذاك، الامل في استرجاع تلك القيم جميعا ذات يوم، ولكن هذه المواساة ليست حقيقية الا بمقدار بسيط، فالزمن وحده هو الذي سيكشف للانسان المعزول بين جدران اربعة ان تلك القيم انما هي في الواقع لعبة اخترعناها نحن لنعبر شوطنا دونما ملل كبير، فما الذي ستعنيه الحياة حينذاك؟

لن ادعي هنا انني لم اكن لاخشى الموت، كلا - هذا شيء لم افكر فيه كثيراً في الحقيقة - انه من اصعب الامور على الانسان ان يتصور موته

الخاص، بلا سبب. لقد كنت افترض الموت كاحتمال نظري امامه احتمال آخر ومساو، ويبدو ان الصمت قد ساعدني كثيرا على اعتياد ذلك الافتراض الى درجة لم اعد اخشاه كثيرا.

كنت مريضا جدا يوم عقدت المحكمة جلسة خاصة للاستماع لرد الاتهام، وسمح القاضي بغيابي شرط ان اطلع على نسخة من المطالعة، وقد جيء لي بها عند الظهيرة، كانت تكرارا للقصة كما يراها الاتهام مع شيء من التفاصيل.

لقد رفض الاتهام فكرة وجود «رجل مجهول» آخر في الجريمة، وسخر من هذه النقطة التي اعتمد عليها الدفاع، وتساءل عن ذلك المجهول الذي لم يبرز الا عند الجريمة، ولم يقبل ما قاله الادعاء حول الرسالتين اللتين وصلتا في فترة واحدة تقريبا للشاب الارجنتيني ولسعيد الحايك وتحداه في ان يثبت، باية صورة من الصور، وجود «شخص» مجهول قام بتوجيهها للرجلين، وقال انه حتى لو افترضنا وجود مثل ذلك الشخص فما هي مصلحته من دفع الطرفين الى المحكمة في وقت كان يستطيع فيه ان يتصل مباشرة بعائلة الحايك للمساومة دون الدخول في حيثيات القضاء.

ووصف الاتهام قصة قيام «المجهول» بارتكاب الجريمة بانها «خيالية وغير معقولة وتفتقر الى الادلة» وقال بأن كون بواب العمارة لم يشاهدني وأنا ادخل الى البناية في المرة الاولى ليس برهانا على انني لم ادخلها، فشهادة البواب في هذا المضمار ليست قاطعة اولا لانه اعترف بغيابه لفترة ما تلك الليلة، وثانيا لان عمارة من اربع عشرة طبقة يقوم بالدخول اليها والخروج منها عدد من السكان والزوار ليس بوسع رجل واحد تذكر وجوههم جميعا.

ورفض الاتهام في لهجة قاسية، الطريقة التي برر فيها الادعاء رمي «رزمة متطاولة» في البحر، ولم يقبل تفسير الادعاء لموضوع الوثيقة الحاسمة وكيفية وصولها الى يد ليلى ووصف كلا الامرين بانهما تصور يفتقر الى الادلة.

وكان المحامي الاشيب جالسا على مقعد خشبي في الزنزانة، ينظر الي قلقا وانا اقرأ الاتهام بامعان، وحين انهيت القراءة ناولته الاوراق، فاخذها وطواها بدقة، فيما كان منصرفا الى تفكير عميق، ووضعها في محفظته ثم انشأ يحدق الي محتارا.

واخيرا قال، بصوت تعس، انني اضعه بصمتي في موقف مضحك.

ونهض وربط يديه وراء ظهره وخطا نحوي وهو يقول:

ـ انا محام يا استاذ صالح، ولست كاتب قصص.. لماذا لا تساعدني؟

وانتظر، مرهفا حواسه جميعا، اية اشارة جديدة الا انه عاد فهز رأسه ومضى يسير بخطوات صغيرة داخل الزنزانة ثم وقف والتفت نحوي:

ـ انه من النادر ان يستطيع محام مثلي اخذ قضية لمحام مثلك على عاتقه، انا واثق انك تستطيع ان تكون عنصرا مساعدا جدا، انت اكثر خبرة منا جميعا، ثم ان القضية قضيتك..

ولم يستطع ان يضبط صوته فصاح:

ـ وهي حياتك ايضا!

وحين يئس تماما عاد الى المقعد فجلس، وفكر قليلا، ثم قال:

ـ انا واثق من شيئين على الاقل اولهما انك لم ترتكب الجريمة وثانيهما ان رجلا مجهولا لعب الدور الاساسي، ولكن هذا كله لا يعني شيئا امام الادلة الموجودة ـ انا في حاجة الى عقلك ومقدرتك.

وكان يتوقع كما يبدو ان تلاقي هذه المحاولة الجديدة ما لقيته المحاولات السابقة، فاتكأ بهدوء وحدق الى السقف ومضى يرسم لوحة:

ـ «ثمة رجل مجهول كان يتابع الامر كله عن كثب، كان يمتلك وثيقة واحدة تثبت ان الصبي الارجنتيني ليس وريثا، ولكنه لم يكن ليستطيع استعمال هذه الوثيقة الا اذا انبرى الشاب للمطالبة بحقه، وكان يعرف انه حين تتعقد القضية في المحاكم يستطيع ان يبيع الوثيقة الى احد الطرفين، وهكذا دفعها ببراعة نحو القضاء، واختفى طيلة تلك الفترة ليظهر في الوقت المناسب، كما ترى وعكس ما قال الادعاء ان ذلك المجهول لم يكن ليستطيع مساومة آل الحايك على تلك الوثيقة لانهم لن يهتموا بها، كان المجال الوحيد امامه هو ان يخلق الجو الذي يضمن لتلك الوثيقة قيمة ما.»

وفكر مليا فيما قاله، ونفض يديه امامه محتارا واخذ يهز رأسه وتمتم متحسرا:

ـ «ولكن كيف يمكن اثبات وجود ذلك الشخص المجهول؟»

ونظر الي من طرف عينيه، متوقعا بصورة تكاد لا تلحظ، ان اعطي جوابا ما، وحين لمس فشله الجديد مضى كأن شيئا لم يحدث:

ـ «لو افترضنا اننا نكتب رواية مثيرة لوضعنا احتمالا آخر، لقلنا ان الرجل المجهول هو الاب الحقيقي للشاب الارجنتيني، وان ما فعله كان عملا يستهدف منفعة الابن الذي امضى عمره كله يظلمه، والذي بات موت والد ليلى يهدده بظلم افجع!»

وضحك، بمرارة، ثم نهض متثاقلا وحمل حقيبته واخذ ينظر الي، قاعدا على السرير الخشبي الواطىء كقطعة منه:

ـ انك الوحيد الذي يستطيع ان يثبت شيئا هاما، اين كنت بين السادسة والسادسة والنصف من ذلك المساء المشؤوم؟ ولماذا ذهبت الى ليلى؟

وخطرت في جبينه فكرة سريعة فعاد وجلس:

ـ في الواقع هناك اسئلة اخرى بحاجة الى جواب: لماذا عدت الى مكتبك؟ ما الذي حملته معك؟ ما الذي رميته في البحر؟ لماذا رفضت التسوية بين آل الحايك والشاب الارجنتيني؟ لماذا؟

وبهدوء، وبصوت كالثلج، جاء السؤال الذي توقعته منه دائماً:

ـ أتكون أنت الذي قتلتها حقاً أيها التعس؟

ووضع حقيبته على الارض وانحنى باتجاهي:

ـ قد تكون ذهبت لليلى لسبب شيطاني لا اعرفه، هذا لا يهمني الآن.. ولكن من الذي قتل ليلى؟

وبالرغم من انني لم اكن انوي الجواب الا انني مضيت، حقا، افكر بالسؤال، ولم استطع ان اجد اية بادرة لاي جواب فهززت رأسي

بالرغم من سيطرتي على نفسي فصاح:

- ها! ها! نحن آخذون في التحسن الآن. انني على يقين انك على الأقل تستمع الى ماأقول،ما كان ضرك لو، بدلاً من هذه الحركة، قلت شيئا؟

وشجعته البادرة فنهض، وقرفص أمامي كما يفعل والد رحب الصدر:

- سعيد الحايك؟

سأل بصوت خفيض، يكاد لا يسمع، مشحوناً بالتردد وبتأنيب الضمير، ثم وضع بنفسه حيثيات الجواب:

- يبدو ذلك مستحيلا، فقد حاول الانتحار حين علم، وكان في الارجنتين آنذاك يحضر لها مفاجأة سعيدة، ثم لماذا؟ كان يحبها بجنون، وقد منح الارث كله لاعمال خيرية باسمها دون ان يكون مضطراً لذلك، لقد كان الوحيد الذي يعرف انها نوت ذلك، وكان بوسعه الاحتفاظ بالارث كله، لو شاء..

وتردد قليلاً وسأل:

- هل كانت تخونه؟

وحدق الي متحفزاً، ولا شك ان فكرة جهنمية عبرت جبينه عبوراً صاعقاً، فقال، مستثاراً:

- معك أنت؟

ومضى يضع جواباً:

ـ ليس ثمة أي دليل، لا مادي ولا حتى ظني. . ومعك أنت؟ هذه مسألة ليس من الهين اثباتها، وحتى لو كان هذا صحيحاً فمن الأكيد ان سعيد الحايك لم يكن يدري، لقد حققوا معه طويلاً في مثل هذا الاحتمال ولو كان يدري اذن لما حاول الانتحار. . ثم، لماذا يقتلها هي؟ معك انت؟ ثم لماذا يدفع، عنك، تكاليف الدفاع؟

ونفض ذراعيه:

ـ . . وهذا لا يثبت شيئا، على اي حال ـ الا انك زرتها ليلتذاك، والا انك كنت، اغلب الظن، في الداخل ـ اي انك ارتكبت الجريمة.

وقرر:

ـ دعنا من هذه النقطة، هل ثمة رجل آخر؟

وسار في الزنزانة، يدق خطواته في حيرة وتردد، ثم توصل الى موضوع جديد.

ـ لنقل ما يلي: ذهبت انت لتزورها لسبب ستقوله لنا فيما بعد، وقبل ذلك بنصف ساعة حاول لص ما ان. .

وسكت فجأة، كما لو انه اكتشف بنفسه ان ما سيقوله لا يحمل اية قيمة، ورغم ذلك فقد احتملت رغبته في الكلام فترة صغيرة من التردد، ثم قال:

ـ طيب، لنقل ان لصا ما كان في تلك الاثناء يحاول سرقة البيت، وفوجىء بليلى فطعنها، وكان ينوي حقا السرقة وليس اي امر آخر، وقد سرق المجوهرات. لنقل ان سرقة المجوهرات ليست تمويها، الا يبدو

ذلك منطقيا لو. .

وسكت مرة اخرى، وما لبث ان قالها:

- . . . لو انهيت اضرابك، وقلت شيئا، وساعدت في وضع مطالعة قانونية؟

كانت الحيرة هي التي اخذت تدفع به من تصور الى آخر، في الحقيقة ان كل ما كان يريده الآن هو ان احكي.

لقد بات يشعر ان صمتي حمله مسؤولية لم يكن يتوقعها تماما، وانني لو تكلمت لتخلص من جزء كبير من هذه المسؤولية.

لقد استنفد وسائله فعاد يلتقط حقيبته، ودون ان يقول شيئا اشار للحارس ان يفتح الباب، وفقط حين انتهى الحارس من اغلاق القفل مرة اخرى التفت الي، وبدا لي في لحظة واحدة سجينا، وانني انما أزوره، وقال محذرا:

- انت لست في موقف حسن. . . واخشى ان يكون رأسك اقرب الى المشنقة مما تتصور، وانا اقول لك ذلك كي تقرر مصيرك بنفسك.

واستمعت، حالما، الى صدى خطواته الثقيلة المترددة تعبر الرواق الحجري الكامد، كأنها كانت تعتزم بالرغم منه العودة الي، وبدا لي ان كل شيء تبقى من هذا العالم آخذ في الابتعاد عني للمرة الاخيرة، وقد قمت بهدوء فامسكت بقضبان الحديد وفكرت بكل ما لدي من قوة، للحظة واحدة فقط، ولكنني لم اجد شيئا جديدا يستحق ان يجبرني على تغيير قراري، لقد جاؤوا بالعشاء فاكلت دون اهتمام من ذلك النوع الوحيد من الطعام الذي اعتادوا ان يقدموه لي، كانت الآلام ما تزال

تختبىء في معدتي، وكنت اعرف انني سأمضي ليلة متعبة، ولذلك غفوت مبكرا.

ولم اكن ادري ـ تلك اللحظة ـ ان سعيد الحايك كان يتقدم بطلب الى المحكمة ليتكلم في الجلسة التالية!

وفوجئت يوم الحكم بان المحكمة اعطت فرصة لسعيد الحايك كي يتكلم بناء على طلب ملح، وحين وقف على منصة الشهادة بدا تعساً وحائرا.

قال سعيد الحايك انه، رغم كل ما حدث، لا يعتقد انني القاتل، ولا يعتقد انني انا الذي كتبت الرسالتين المغفلتين اللتين ارسلتا له وللشاب الارجنتيني، وقال انه حين قابلني اول مرة لم اكن اعرف اطلاقا اي شيء عن القضية ثم استأذن المحكمة في ان يتوجه بالكلام الي مباشرة، وحين منح الاذن استدار نحوي، وخيل الي انني رأيت في عينيه دموعا، ورجاني في صوت مؤثر ان اتكلم، لا لاقول اي شيء ولكن لاوجه اليه اي سؤال اشاء، واقسم ان يجيب بكل ما يعرف.

وانتظر دقائق وهو يحدق الي، وكانت القاعة كلها تحدق الي ايضا، وحين خيم صمت ثقيل عاد سعيد الحايك فقال انه قد يكون ذا نفع، في جانب لا يعرفه، وقال لي انني قد اعتقد انه يعرف شيئا، او انه قد يساعد في ايضاح بعض النقاط ورجاني مرة اخرى ان اسأله اي سؤال، او اطلب منه الحديث في اي موضوع ولكنني اعتصمت بالصمت.

ومرة اخرى استدار واخذ يخاطب القاضي، اقسم في البدء انه قال

كل ما يهم المحكمة ان تعرف، ورمقني بطرف عينيه، وهو يقسم، ويده امامه، بانه لا يعرف شيئا عن الذي ارسل الرسالتين المغفلتين، ونظر الي مباشرة وقال: قد تكون شاكا في امر الرسالتين، ولكنني اقسم لك بذكرى ليلى ـ وانت الذي يعرف كم اقدس هذه الذكرى ـ بانني لا اعرف شيئا الا ما قلته للمحكمة.

ومرة اخرى خيم الصمت، وكنت انظر الى البلاطة التي تقع بين حذائي، مسيطرا تماما على كل حواسي وجسدي، وقد سمعته، وانا مجمد، يعلن للمحكمة ولي انه سيمنح نصف الارث لزوجتي، تعبيرا منه عن عطفه علي، وانه سيكتفي بمنح النصف الآخر للمشروع الخيري الذي اوصت به زوجته.

ونزل سعيد الحايك عن المنصة ببطء، وحين صار امام القفص وقف هنيهة، وسأل وهو يرتعش: اتريد ان اقول شيئا؟ وحين لم يتلق جوابا مضى، بهدوء، الى مقعده.

واخذت الضوضاء، في القاعة، تتصاعد من الهمس الى الكلام الى زحزحة المقاعد، وعبر هذه الدوامة التي كان صداها يرتد من جدار الى جدار، ضيعت كل قدرتي على فهم سعيد الحايك، لقد بدا ذلك الرجل المصطبغ بالنبل الضروري جالسا بين الناس لغزا يستعصي على الفهم، ولكنني كنت واثقا انه لم يرتكب الجريمة كما كان واثقا بانني لم افعل، لقد كنا نتبادل، صامتين، عملة عجيبة اسمها التواطؤ، دون ان نتفق على ذلك، وكان كل ما حدث بيننا امراً يخصنا وحدنا. لقد فكر سعيد الحايك كما يبدو ان يروي حقيقة قصة الارث، ولكنني ادرك الآن انه هو ايضا لم يكن يعرف الحقيقة الكاملة. ولم يعد يعرف كيف فلتت الخطة

من بين اصابعنا معا، وحتى لو قال الحقيقة فان ذلك لم يكن ليحل الاشكال، ان قصته لا تبرهن على انني لم افكر بالمساومة، وليس ثمة ما يثبت صحتها - ستبدو محاولة صبيانية يبذلها صديق لانقاذ صديقه من الموت، ومهما يكن فقد كنت عاجزا عن تصور الطريقة التي اقنع سعيد الحايك نفسه بواسطتها بأن عليه ان لا يقول تلك الحقيقة الجزئية العابرة، وقد منحني فرصة عادلة لاوافق على اجتهاده ففعلت.

ان سعيد الحايك كان يراوده الشك منذ البدء في انني قد استغل هذه القضية لمصلحتي، وقد اشار الى ذلك عابرا مرة او مرتين، فاذا كان هو ذاته يشك في الامر، فلماذا لا يتيح للقضاء ايضاً فرصة مماثلة؟ الم يكن ذهابه الى الارجنتين من وراء ظهري تعبيراً عن ذلك الشك؟ كيف سيبرره اذا روى القصة الحقيقية؟ ماذا عنده ليقول حول علاقتي بليلى وهو الذي يعرف انه لا توجد اية علاقة بخصوص القضية المتفق عليها. كيف سيبرر ذهابي لبيتها؟ ما هو الاتهام البديل؟ بمن يشك اذن؟

لقد طرح بلا شك هذه الاسئلة على نفسه واكتشف انها لن تؤدي الى جواب، وقد اخذت القضية منذ البدء اتجاها فرضته مجموعة ظروف لم يكن يتخيل اي منا انها ستصل الى ذلك الحد، واذا ما بذل اية محاولة للعودة الى نقطة البدء فقد كان يدرك انه قد يقع في مكاني، ان زحزحة صغيرة للاسس التي افترضها الاتهام ووافقه عليها الدفاع من حيث لا يدري ستغير امكنتنا، وستضعه هو بين فكي تلك المصادفة الرهيبة - انني استطيع، لو كنت مكان الادعاء وكان سعيد الحايك في مكاني، ان اكتب مطالعة محكمة، تضع رأس سعيد الحايك في حبل المشنقة، دون ان يكون هو بالذات مرتكب الجريمة.

هل تريدون ان احاول ذلك؟

انني استطيع ان افترض ان سعيد الحايك وجد دلائل تشير الى علاقة بين زوجته والمحامي صالح، وقد ادرك انه هو، من حيث لا يدري، كان سبب هذه العلاقة نتيجة للعبة غريبة حول وريث مزعوم كان يدرك منذ البدء انه يستطيع التخلص منه في اية لحظة تحت وطأة وثيقة كانت معه منذ البدء، وهو الذي وضعها بين كتبه بعد الجريمة وليس قبلها - وقد قرر ان يقوم بالجريمة لاسباب عاطفية اولا، ولان الارث سينصب عنده ثانيا، وقد نفذها بالواسطة، ابان رحلة مصطنعة الى الارجنتين - ان قضية التبرع بالارث قد تكون وسيلة لابعاد الشبهة، وسيظل من الميسور ان يجد المحامي البارع وسيلة ليثبت ان التبرع كان مشروطاً وانه لم يكن حقيقيا تماما، وعلى اي حال فان هذه النقطة كانت للتمويه، تماماً كما كانت سرقة المجوهرات.

وفي هذه القصة يمكن ان توضع قصة المحامي صالح في مكانها السليم، زيارته لليلى، وزجاجة العطر والدخان والبصمات والهاتف وكل شيء.

ولكن هل هذا الصحيح؟ ان هذا الاتهام كله مبني على ان سعيد الحايك كان يعرف بوجود علاقة بيني وبين زوجته؛ وهذا غير صحيح، ومبني على ان غيرة سعيد الحايك هي الحافز وراء الجريمة وهذا افتراض خادع وغير مثبت في وقائع.
ورغم ذلك فهل كان سعيد الحايك على استعداد ليروي القصة الحقيقية؟ وهل كنت انا، من ناحية اخرى على استعداد لاروي الجانب الحقيقي المتعلق بي؟ وفي سبيل ماذا؟ اننا نحمل. كل على طرف، قناعة

كاملة ببراءة الآخر . . وكان لا بد لواحد منا على الاقل، هو ذاك الذي لا سبيل الى التقليل من الادلة ضده، ان يدفع الثمن.

ولكن من الذي قتل ليلى الحايك؟

سؤال يؤرقه بقدر ما ارقني ـ ولكنني الان تخلصت من همه. الصدفة هي التي فعلت ـ ايها السادة ـ الصدفة ـ ليس يهمني ان كانت تلك الصدفة قد لبست ثوب لص، او ثوب مجرم جهنمي كان ورائي منذ البدء، ذلك ان الذي يهمني هو ان خصمي في هذه القضية الفاجعة انما هو الصدفة، وهي التي دفعتني، باصرار لا يصدق، لقفص الاتهام.

وعليها الآن، وحدها، ان تتقدم،اذا شاءت ان تطلق سراحي!

***

مضى اسبوع آخر. . وعقدت الجلسة الاخيرة في جو حزين مشحون بالقلق. لقد رد القاضي بكلمات موجزة صارمة دفاع محامي، واكد ان المحكمة لا تجد اي دليل لافتراض رجل آخر في الجريمة، واعلن عن عدم قناعة المحكمة بتبريرات الدفاع وتفسيراته الافتراضية لجملة الادلة الثابتة.

قال القاضي انني، وقت وقوع الجريمة، كنت في بيت ليلى وان قناعة المحكمة بهذه الحقيقة مستندة اولا الى بصماتي، وثانيا الى كوني لم استطع ولم يستطع اي شاهد اثبات وجودي في مكان آخر، وثالثا الى شهادة هناء حول هاتف الظهيرة، ورابعا الى وجود علبة سكائري في مكان الجريمة، وخامسا الى شهادة الاشخاص الثلاثة من سكان العمارة الذين رأوني اتردد على باب المصعد، وسادسا الى شهادة البواب الذي رآني

اضع شيئاً متطاولاً يشبه السكين في معطفي، وسابعاً الى شهادة بائع السجائر الذي رآني اتخلص من هذا الشيء على شاطىء البحر.

وقال القاضي ان لدى المحكمة قناعات بأن حافزي منذ البدء هو الخروج بحصة كبيرة من الارث، وقد اثبتت الادلة المسلسلة تخطيطي للحصول على تلك الحصة، واشار اعترافي من طرف خفي الى النية التي كادت ان تضيع علي حين عرفت ان سعيد الحايك سيجري اتصالا مباشرا مع الوريث المزعوم.

وقال القاضي ان المحكمة تمتلك ادلة لا تدحض تثبت حاجتي الشديدة الى المال، وانه كان علي ان اسدد ديونا بصورة نهائية خلال شهور قليلة.

ورفضت المحكمة الزعم القائل بان محامياً قديرا مثلي تفوته الحكمة وحسن التقدير فيأخذ على عاتقه قضية من هذا النوع لمجرد ان رسالة مغفلة وصلت الى خصمه، واطلع عليها بالصدفة ونصحية ساجذة اعطاها له الزوج الشكاك.

وانتهى القاضي الى القول بان الجريمة كانت مخططة عن سابق تصور وتصميم، واستند للوصول الى ذلك الاعتقاد بتسلسل الحوادث المنطقي، وبعدم تركي اي بصمات في مسرح الجريمة ما عدا ذلك الاثر المصادف الذي تركته دون وعي على حافة الباب في المرحلة الاولى من الجريمة.

وقال ان جريمتي لم تكن ضد انسانة فاضلة لمجرد تحقيق مطامع مالية فقط ولكنها كانت ايضا ضد شرف مهنتي وضد وعود اعطيتها للضحية

ولزوجها.

ووصل الى القول ان ذلك كله يظهر بان المحكمة انما تواجه مجرما محترفاً يتسلح بالذكاء وبالخبرة وان وجوده يشكل خطرا مهما على العدالة والمجتمع.

وأعلن القاضي ان هيئة المحكمة قانعة تماما بان صمتي هو نوع من الاعتراف بالجرم سببه وفرة الادلة التي لم اكن احسب لها حساب. وعدد فيما بعد، والجميع وقوف، سلسلة لا تنتهي من المواد القانونية بلهجة شديد الفخامة، ثم نظر الي مباشرة وهو يقضي بان العقاب سيكون - كما توقعت وانا استمع الى حيثيات الحكم - الاعدام شنقا حتى الموت.

اني امنحك هذه الاوراق جميعا، يا زوجتي الحبيبة، لتتصرفي فيها كما تشائين..

انت وحدك التي تستطيعين ان تقرري ماذا ينبغي عليك ان تفعلي فيها: ان تحرقيها، او ان تهديها للعدالة ذات يوم - فاذا كنت انا قد مضيت بصمت فالذي تبقى مني هو انت.

لقد شهدت في عينيك، قبل الاستماع الى الحكم، ومضات من نظرات الشك وانا لا الومك ولكنني اعطيك القصة الحقيقية، قصتي وقصة ذلك الشيء الاخر الذي كنت، طوال ايام السجن القاسية، في عراك صامت معه، وراء القانون، وراء الاتهام والدفاع، وراء دموعك وعجزي، وراء منصة القضاء ووراء الضحية التي طعنت حين كنت انا احلم بجسدها المعطر بين ذراعي.

ولست انا الذي يستطيع وضع نهاية للقصة . .

انني احس ببرودة الموت في اطرافي، واصحو في الليالي الصامتة لافك عن عنقي كابوساً من الليف والزيت وامضي في ذلك الانتظار التعس خارج منطق الزمن والبشر، في عراك نادر مع شيء آخر لا أعرفه ولا نعترف به.

لست انا الذي يستطيع وضع نهاية للقصة . . . ولست ادري ان كنت استطيع ان احبس لساني حين يأخذونني ـ ربما الليلة ـ الى الموت .

انني لا ادعي الشجاعة ولكنني اعترف بالعجز، واذا انفك لساني رغما عني وانا اصعد الى حبل النهاية فلست اعرف كيف ستكون الحياة بعدها ولكنني اعرف انها ستكون قصيرة جدا، وانني سأساق الى ذلك الحبل مرة اخرى . . .

انني شديد التعاسة لانني تركت لك، امام الناس، ميراثا قذرا ولم اكتب هذه الاوراق الا لاجعل تعاستك اقل، واعطيك حريتك الكاملة في ان تقرري الميراث الذي تريدينه مني: اوراق القانون ام هذه الاوراق.

ولكن هل تصدقين انني احببتك وسأظل احبك؟

ستجدين صعوبة في ان تفعلي، ولكن الكلمة الاخيرة التي سأظل اقولها لك هي انني احبك، يا ديما، احبك احبك.

تصرفي كما تشائين في الارث، ارثي وارث ليلى المسكينة ـ قد تحتاجين الى هذه الاوراق لتشقي طريقك نحو زوج آخر فانت صبية وجميلة

والايام انما هي غبار تترسب ذراته الناعمة فوق ذاكراتنا . . .

سأضع هذه الاوراق مع محاميّ المسكين الذي بذل جهدا مشكورا في قضية يائسة، وسأكتب له على الغلاف ان لا يعطيها لك الا بعد ان ينتهي كل شيء وارجو ان لا تدفعه حيرته الى فتحها قبل الوقت المناسب .

وسأدعو لنفسي ، ذلك انه لا يوجد اي انسان آخر يعرف الحقيقة ليدعو معي ، ان اسيطر على لساني وانا اساق، غدا او بعد غد لست ادري ، الى حبل الليف والزيت .

. . وان تستطيع رحلة الصمت عبور تلك الخطوات الرهيبة الى الموت .